دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences

OPEN ACCESS

تاريخ الاستلام: 10 ديسمبر 2020
تاريخ القبـــول: 7 ينايـــــر 2021

مقالة بحثية

تكامل مستويات الدرس اللساني في تحليل الخطاب القرآني وتجديد النظر فيه: دراسة لسانية تحليلية لسورة يوسف

محمد إسماعيلي علوي

أستاذ اللغة العربية وتحليل الخطاب، مختبر الدراسات الأدبية واللسانية والديداكتيكية، جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المغرب

m.i.alaoui15@gmail.com

ملخص

يسعى البحث إلى تقديم إطار لساني ومعرفي جديد في تحليل الخطاب عامة، والخطاب القرآني خاصة، ويعتمد على (العلامة) بكل أنواعها في تعالقها وانسجامها، في سبيل الوصول إلى المعاني والمقاصد الكامنة في النصوص، إنه تَصُور يستند إلى مبدأ التكامل المعرفي بين عدة علوم ومعارف: في مقدمتها علم اللسانيات، باعتباره علم العلامة اللغوية بامتياز، ثم علم السيميائيات، باعتباره علم ما وراء العلامة ورمزياتها، ثم العلوم الشرعية، باعتبارها العلوم الضابطة والموجهة للمقاصد والأحكام. كل هذا يجعل عدة علوم مجرد مستويات (علامات) تتضافر فيما بينها في بناء المعنى، وتكون دليلًا قويًا عليه، مما يجعل النظر في القرآن الكريم أكثر ضبطًا وانسجامًا مع المعاني والمقاصد التي يوجهنا إليها الحق تبارك وتعالى، وبهذا يصبح أي تحليل للخطاب القرآني لا ينطلق من هذه الرؤية التكاملية مجرد تحليل ناقص، لا يستطيع النفاذ إلى عمق الآيات والسور.

الكلمات المفتاحية: التكامل، اللسانيات، التحليل، الخطاب، القرآن، تجديد النظر

للاقتباس: علوي، محمد إسماعيلي، «تكامل مستويات الدرس اللساني في تحليل الخطاب القرآني وتجديد النظر فيه: دراسة لسانية تحليلية لسورة يوسف»، **مجلة تجسير**، المجلد الثالث، العدد 1، 2021

https://doi.org/10.29117/tis.2021.0056

© 2021، علوي، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية وفقًا لشروط Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0). تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما تتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences

OPEN ACCESS
Submitted: 10 December 2020
Accepted: 7 January 2021

Research Article

Complimentary and Renovation of Linguistics in Analyzing the Quran Discourse: The Case of Surat Yusuf

Mohamed Ismalili Alaoui

Professor of Arabic and Discourse Analysis, Sultan Moulay Ismail University, Beni Mellal, Morocco
m.i.alaoui15@gmail.com

Abstract

The research aims to present a new linguistic and epistemological framework in the analysis of discourse in general and Quranic discourse in particular. It depends on (the mark) in all its forms, its relationship, and harmony, to reach the meanings and objectives inherent in the texts. It is a perception based on the principle of epistemological integration between several sciences, foremost of which is linguistics (as the science of the linguistic sign par excellence), semiotics (as the science behind the sign and its symbolisms), and shari'ah sciences (as the disciplining and guiding sciences of objectives and rulings). Accordingly, all these sciences are levels/signs that integrate to construct the meaning and give evidence for it, for approaching the Qur'an more precise and consistent with the meanings and purposes that the Qur'an orient us to grasp. Thus, any analysis of the Qur'anic discourse, which does not start from this integrative vision, becomes a mere incomplete analysis that cannot get the depth of the verses and the surahs of the Qur'an.

Keywords: Complimentary; Linguistics; Quran Discourse; Analysis; Surat Yusuf

Cite this article as: Alaoui M.I., "Complimentary and Renovation of Linguistics in Analyzing the Quran Discourse: The Case of Surat Yusuf", *Tajseer*, Volume 3, Issue 1, 2021

https://doi.org/10.29117/tis.2021.0056

© 2021, Isteitiya S.S., licensee QU Press. This article is published under the terms of the Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0), which permits non-commercial use of the material, appropriate credit, and indication if changes in the material were made. You can copy and redistribute the material in any medium or format as well as remix, transform, and build upon the material, provided the original work is properly cited..

مقدمة

ننطلق في دراستنا هذه من تصور نعمل عليه منذ عدة سنوات مع طلابنا في الدراسات العُليا، ونصطلح عليه «نحو العلامة الوجودي»، ونعتمد فيه على عدة أسس نستمدها – بشكل أساسي – من علم اللسانيات، باعتباره علمًا لغويًا حديثًا أسهم بشكل كبير في تقديم عُدَّة مصطلحية ومفاهيمية وأدوات إجرائية، أثبتت فعاليتها في كثير من المعارف والعلوم المعرفية والإنسانية المختلفة.

من هذه الأُسُس:

- إن علم اللسانيات علم متكامل، يستمد معطياته من كثير من المعارف المتصلة ببعضها البعض اتصالًا وثيقًا، ويُنظر إليها على أنها وحدات ومستويات متكاملة، خلافًا للنظرة السابقة التي تمثلت في جعلها معارفَ وعلومًا مستقلة.
- تأثير علم اللسانيات في علوم أُخرى عُدَّتْ بعيدة عن مجال اشتغاله، ثم صارت بعد ذلك جزءًا لا يتجزأ من الدراسة اللسانية، منها: السيميائيات، والإحصاء، والرياضيات، والمنطق...، لقد شكلت هذه العلوم روافد له خلال بداياته الأولى، ثم أضحت بعد ذلك جزءًا لا يتجزأ منه، وسنستثمر كثيرًا من المعطيات التي ترتبط بهذه المعارف في التحليل والدراسة، خاصةً أن التصور الجديد الذي نتبناه (نحو العلامة الوجودي) هو تصور ينبني في أساسه على عدة معارف متداخلة ومتكاملة، منها: علم اللسانيات، وعلم السيميائيات، وعلوم الشريعة.
- يوفر علم اللسانيات عُدة منهجية ومصطلحية مهمة مكَّنته من توضيح كثير من القضايا اللغوية، بفضل ما وفره من تفريق جلي لكثير من المصطلحات والمفاهيم، فضلًا عن استحداثه لمناهج تحليلية تتميز بالصرامة العلمية والمنهجية.

تقوم فكرة البحث على تقديم دراسة لسانية تحليلية علاماتية جديدة لسورة يوسف، انطلاقًا من التصُور المعرفي الجديد الذي نقترحه «**نحو العلامة الوجودي**»، إنه تصُور معرفي يعتمد في التحليل والتفسير على عدة مستويات لغوية، ثم يستعين بمعارف وعلوم إنسانية متداخلة ومتكاملة، وهو ما يمكِّن من الوقوف على معانٍ ودلالات لم يُسبق إليها من قبلُ، والعلامة كما نعنيها هي كل ما يدلّ على المعنى ويقود إليه، بدءًا من العلامة اللسانية، ثم العلامة السيميائية، وانتهاءً بالعلامة الوجودية الكونية، **ومن هُنا، فإن أهمية هذه الدراسة تأتي من جهتين على الأقل:**

1 - تداخل علم اللسانيات مع عدة علوم، تسهم في إغناء التحليل والنفاذ إلى عمق الخطاب بشكل عام، والخطاب القرآني بشكل خاص.

2 - تطبيق رؤية منهجية وعلمية جديدة في تحليل الخطاب، قائمةً على الانطلاق من العلامة بأنواعها، مما يسعفنا في فهمه، والوصول إلى تفسيرات لغوية منسجمة وقوية الدلالة تؤكد على «مركزية اللغويّ في الحياة المعاصرة، حتى غدت لعلوم تحليل الخطاب قيمة مركزية بين الباحثين، لا سيما بعد ثورة العلوم الإدراكية [...]، وبفضل ذلك غدت المسافة لطيفة بين العلوم الإنسانية وغيرها من العلوم»[1].

وبناءً على ما تقدم، فإننا سنعتمد المنهج التفسيري[2] سبيلًا في الوصول إلى المعاني في الخطاب القرآني، وعليه، سنتتبع المعنى أو المعاني في الآيات الكريمة، من خلال العلامات المختلفة الدالة عليها، فنبيّن ما بينها من اتصال وترابط يسهّل علينا النفاذ إلى المقاصد والغايات من وراء الآيات والسور، وتكون تلك العلامات دليلنا إلى المعاني التي نهتدي إليها، وتقتضي

1 - من الورقة التصورية لمؤتمر (أثر اللسانيات في مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية الذي سينظمه مركز ابن خلدون بجامعة قطر).

2 - نعني به المنهج اللساني الذي ظهر مع تشومسكي، ويعني تجاوز مستوى الوصف إلى مستوى التفسير؛ لفهم القدرة التي تحكمت في إنتاجه بصورة لغوية، دون صور بنيوية أخرى ممكنة، ولماذا أُنتج بتلك الصورة النهائية؟

الخطة أن ندرس كل علامة في علاقتها بباقي العلامات الأخرى على اختلافها، متوسلين في ذلك بعلوم متنوعة في تفسيرها وتوضيحها كعلوم العربية، وعلم السيميائيات، وعلم الإحصاء، وعلم النفس، وعلم المناسبة، كما تقتضي الخطة أيضًا أن نقدم صورة موضحة للتصور المعرفي المعتمد إطارًا في هذه الدراسة ومبادئه، ثم نماذج من آيات قرآنية مختلفة، على أن نخصص الأمثلة الأبرز والأكثر عمقًا وتفصيلًا للآيات المقتبسة من سورة يوسف، خلال دراستنا للمستويات اللغوية وتكاملها في تحديد المعاني، بالإضافة إلى تخصيص دراسة إجمالية للسورة ككل في المبحث الأخير من هذه الدراسة.

الدراسات السابقة في مجال تحليل الخطاب

حظي الخطاب القرآني بأهمية بالغة، قديمًا وحديثًا، من اللغويين، والفقهاء، والأصوليين والمفسرين. لكن ما يمكن التنبيه إليه هنا هو أن هذه الدراسات ظلت محدودة الرؤية؛ لأنها انطلقت من تصور معرفي واحد في أغلبها، وقلما تجد دراسة للقرآن الكريم أولته عناية كبيرة مستعينة في ذلك بعدة علوم ومعارف في تفسيره وتحليله، لهذا ظل أغلبها منحصرًا في زوايا محددة، ومن ذلك دراسته من زاوية نحوية، أو أسلوبية، أو فقهية، أو معجمية، أو بلاغية...، ولا حاجة للوقوف عند أمثلة لهذه الدراسات؛ لتعددها وتنوعها، مما يصعب حصرها. ومع ظهور علم اللسانيات وما وفَّره من مناهج جديدة في الدراسة والتحليل، عرفت هذه الدراسات نوعًا من التغير في المنهج وطريقة التحليل، ورغم هذا، بقيت هي الأخرى منحصرة في جوانب محدودة: (دراسات بنيوية، وأخرى سياقية، وأخرى وظيفية) إلى أن ظهرت لسانيات النص، التي حاولت جاهدة أن تكون دراساتها لأنواع الخطاب أكثر عمقًا وشمولية، مستعينة في ذلك بالبنية الداخلية والعلاقات السياقية التي تحكمها في بناء الخطاب، ورغم كل هذا، فإننا نعتقد أن لسانيات النص – هي الأخرى – ظلت حبيسة بعض المباحث البسيطة، وظلت تدور في فلكها، من ذلك مثلًا: الانسجام والاتساق في الخطاب، والروابط وأنواعها في تماسك بنيته اللغوية، والمؤثرات السياقية في البنية... إلخ. إن «تصوير النص على أنه (فعل لساني) و(عمل لغوي) ليجعل النص يعيش صراعًا داميًا في لغته ذاتها، بيَّن دلالة القصد وصيرورة المعنى، وبيَّن كونه قولًا وكونه تأثيرًا، وبيَّن مدلوله الذي يرتبط وجودًا بإرادة خارج اللغة، ودالة الغيور الذي يأبى أن ينصاع لغير إرادته الذاتية في إنشاء معناه»[3]. من هنا وجب تجاوز العلاقات الداخلية للخطاب، واستنباط المعاني المضمرة استنادًا إلى العلامات الخفية الكامنة فيه.

لهذا، كله نقترح في هذه الدراسة تصورنا المعرفي الذي اشتغلنا عليه من أعوام، وطبقناه إجرائيًا في تحليل أنواع مختلفة من الخطاب، في مقدمتها الخطاب القرآني. إنه «نحو العلامة الوجودي». وهذا ما سنعرضه في المحور الموالي.

أولًا: التكامل المعرفي بين العلوم (علم اللسانيات والعلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى نموذجا)

ينبغي النظر إلى مصطلح التكامل المعرفي بين العلوم من زاويتين علميتين على الأقل؛ الزاوية الأولى: إن العلاقة بين العلوم المختلفة – في منطلقها – علاقة تكامل، حتى لو بدا ظاهريًا التباعد الكبير بين موضوع كل علم ومنهجه وطرق بحثه، ويمكن التمثيل هنا بالعلاقة بين: علم اللسانيات، وعلم الرياضيات، وعلم المنطق. لقد كانت العلاقة بينها – في السابق – علاقة تباعد، ولم يكن يخطر ببال اللغوين واللسانيين أنه يمكن النظر إلى اللغة نظرة رياضية ومنطقية؛ بسبب طبيعة البحث في كل علم من هذه العلوم، لكن بعد ما حققه علم اللسانيات من تراكم، ومن إفادات في معارف عدة، ظهر جليًا التأثير القوي للتفكير الرياضي والمنطقي في اللغة، وكان ذلك سببًا في قلب موضوع اللسانيات رأسًا على عقب، وبسبب هذا التداخل والتكامل تمكن اللسانيون من النظر إلى اللغة، ليس باعتبارها أصواتًا لغوية، وإنما باعتبارها رموزًا رياضية ومنطقية، وهكذا سيتم نقل اللغة من مستواها اللغوي الصرفي إلى المستوى الحاسوبي، بعد أن تمكن العلماء من إعادة برمجة اللغة برمجة رقمية منطقية ورياضية، لقد مكَّننا هذا التداخل بين اللسانيات والرياضيات والمنطق من تيسير أمور

3 - منذر عياشي، **الكتابة الثانية وفاتحة المتعة**، (المغرب: المركز الثقافي العربي، 1998)، ص 18.

كثيرة في الحياة، منها صُنع الحواسيب والهواتف الذكية والقدرة على توظيفها في الكتابة، والرقمنة، وتبادل الرسائل في صور عديدة، إن الحاسوب أو الهاتف الذكي لا يفهم الحروف اللغوية كما هي، إنما يفهمها في رموز رياضية وعلاقات متداخلة، إنها اللغة الرياضية التي يفهمها الهاتف، وعليه: عند إضافة اللغة المعنية إلى ذاكرة الهاتف، فإنه يُعطى لكل حرف رمزٌ رياضي، فيكون بمقدورنا بعد ذلك قراءة الرسالة بتلك اللغة بشكل واضح ومفهوم، إذن، هذه صورة مبسطة للتكامل المعرفي بين: علم اللسانيات، وعلم الرياضيات، والمنطق.

أما الزاوية الثانية، فتتعلق بكون العلاقة بين بعض المعارف والعلوم ليست علاقة تكامل فقط، وإنما هي علاقة تلازم وتطابق، مثال ذلك: العلاقة القوية بين علوم العربية والشريعة؛ لأن أحكام الفقيه واستنباطاته الشرعية تنبني – بشكل أساسي – على الدلالة اللغوية للكلمات والأساليب في اللسان العربي، وفهم بنية التراكيب وعلاقات مكوناتها، «فلا سبيل لإعمال الدليل في الوصول إلى الحكم الشرعي إلا إذا سبقته دراية لغوية في فكر المستدل، ومن شواهد التداخل اللغوي في أوساط الدلائل الشرعية، تفريق الأصوليين في دلالات الكتاب والسنة، بين ما كان منهما لفظًا مشتركًا في معانيه وما كان منهما مستقل المعنى، فجعلوا دلالة الأول ظنية؛ لاحتمال إرادة معنى دون معنى، وجعلوا دلالة الثاني قطعية؛ للقطع في لسان العرب بعدم احتمال إرادة معنى آخر، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اعتبارهم للسان العربي، وما أُثر عنه من المعاني واستقر»[4].

وبتركيز الحديث على علم اللسانيات والبحث في تاريخه وأصوله وامتداداته، فإننا نلاحظ أنه لم ينشأ من فراغ، بل ظهر هذا العلم بناءً على التراكم المعرفي الذي حققته علوم كثيرة سابقة عنه، منها: علم اللغات المقارن، وكان لنتائجه فضل كبير في تطوير التفكير في اللغة وآليات تحليلها ودراستها، ويعدّ عصر النهضة ومطلع القرن العشرين – بالنسبة إلى الدراسات اللغوية الغربية – أهم العصور التي أثرت في ظهور اللسانيات؛ إذ شهدت هذه الفترة نشاطات فكرية كبيرة، واشتدت العناية باللغة وكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد، منها: إحياء اللهجات الأوربية المتنامية، واكتشاف لغات جديدة، وتقنين القواعد، وإصلاح أنظمة الكتابة والتهجئة، والاهتمام بالآداب بمختلف أشكالها]...[ومن أشهر المدارس النحوية التي ظهرت في عصر النهضة، وذاع صيتها كثيرًا في فرنسا وخارجها، مدارس بور رويال Port Royal»[5]. وتعود جذور الدراسات اللسانية الموجودة اليوم إلى مطلع العصر الحديث، ومن بين المفكرين الأوربيين الذين يمثلون بحق هذه الإرهاصات ليبنيز Leibniz وفيكو Vico وهاردر Harder ووليم جونز W. Jones»[6].

وبهذا المعنى، فإن اللسانيات لا تشكّل سوى جزء خاصّ من التفكير اللغوي الممتدّ عبر التاريخ، والحضارات الإنسانية الكبرى؛ إنها أولًا وأخيرًا فكر له سماته وخصوصياته، التي تميّزه عن غيره من أنواع التفكير اللغوي الأخرى، كالفكر اللغوي التاريخي والفكر المقارن»[7]. وهذا هو الموقف ذاته الذي يتبناه جورج مونان، حيث يرى أنّ أصول اللسانيات تضرب في عمق التاريخ الفكريّ والمعرفيّ الإنسانيّ، إن اللسانيات الحديثة لم تنبثق فجأة في القرن التاسع عشر، كما تنفجر العاصفة في سماء صافية، لقد مهّدت لظهورها آراء سابقة في اللغة، على الأقل منذ مصر القديمة»[8].

كما يقرّ فرديناند دو سوسير نفسه في كتابه (محاضرات في اللسانيات العامة) بأن اللسانيات استمرار لمراحل حدّدها في ثلاث مراحل أساسية؛ هي[9]: مرحلة النحو Grammer: بدأت مع اليونان وانتهت بعصر النهضة (القرن السابع عشر)، مرحلة فقه اللغة (الفيلولوجيا) Philology: بدأت في الإسكندرية خلال القرن الثالث ق.م، مرحلة فقه اللغة المقارن Comparative philology: وبدأت مع فرانز بوب Fanz Bopp.

4 - البشير محمد عبد الله، **اللغة العربية في نظر الأصوليين** (دبي: إدارة البحوث بدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، 2008)، ص 56.

5 - أحمد مومن، **اللسانيات: النشأة والتطور** (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2005)، ص 46-49.

6 - المرجع نفسه، ص 56.

7 - مصطفى غلفان، **في اللسانيات العامة** (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2010)، ص 95.

8 - المرجع نفسه، ص 95-96.

9 - المرجع نفسه، ص 97.

كما أحدث نعوم تشومسكي ثورة علمية ومعرفية ومنهجية كبيرة، من خلال نقله موضوع هذا العلم من دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، كما ذهب إلى ذلك فيرديناند دو سوسير، إلى دراسة الملكة العقلية الفطرية التي تتحكم في اللغة البشرية إنتاجًا وفهمًا وتواصلًا، ولم تكن هذه النقلة النوعية تحدث لولا تكامل الرؤية الفلسفية والمنطقية والرياضية مع الرؤية اللسانية للغة، وتجاوز الأفكار البسيطة التي تحصرها في مجرد أصوات أو كلمات، والتعامل معها في حدود الظاهر والخارجي منها فقط، يقول الباحثان إيان روبرت وجيفيري واتمول: «إن بنية النحو التوليدي كما جاء في كتاب تشومسكي (مظاهر النظرية التركيبية 1965) قائمة على أسس الثورة المعرفية وإحياء الفلسفة العقلانية]...[كما ذهب إلى ذلك لايبنيز Leibniz، الذي يعتبر أن الأفكار والمبادئ الفطرية بمختلف أنواعها [...] تحدد شكل المعرفة المكتسبة بطريقة قد تكون محدودة إلى حد ما ومنظمة للغاية»[10].

لقد استلهم تشومسكي فكرة النظر إلى مصدر اللغة (الملكة التي تنتجها)، من خلال فكرة لايبنيز الفلسفية التي يقول فيها: «ليس هناك ما هو أهم من النظر في أصل الاختراع، والذي هو في نظري، أهم من الاختراع نفسه»[11].

لقد أعاد تشومسكي النظر إلى اللغة من زاوية تفسيرية، وعقلية تبحث فيما وراء تشكل الأصوات والجمل، وسبب حدوثها، واختلافها بصور إبداعية وغير محدودة من متكلم إلى آخر، هذا ما سيدفعه في النهاية إلى ربط اللغة بالعقل البشري، ويسعى إلى البحث في البنية الذهنية للغة، واعتبار ما يشكل البنية الظاهرة – البنيوية – لها (الأصوات، والصرف، والنحو، والتركيب، والدلالة) ما هي إلا مستويات توصلنا إلى تقديم تفسيرات مختلفة لبنية الخطاب التي انتهى إليها، من خلال معرفة كيف تحكم العقل البشري في إنتاجه على تلك الصورة؟ هذا التحول في موضوع اللسانيات سيؤدي إلى ظهور مجالات معرفية مهمة للغاية، منها: علم فلسفة اللغة، وهو حقل فلسفي ثري يتعامل مع فلسفة العلم واللغة والعقل وأمور أخرى، بعد أن كان يهتم بالقضايا الأنطولوجية، ونظرية المعرفة المرتبطة بالكفاءة اللغوية[12].

إن هذه النقلة النوعية في موضوع علم اللسانيات هو ما سيربطها بدائرة علم أكبر وأوسع، وهو علم النفس الإدراكي، الذي يبحث في الملكات والقدرات المتعددة التي زوّد الله بها الكائن البشري، وهي التي تمكنه من القيام بكل وظائفه في الحياة (ملكة معرفية، ملكة نفسية، ملكة عقلية، ملكة منطقية، ملكة إدراكية، ملكة لغوية...). وما دامت اللغة – مع هذا التصور– ملكة فطرية في الإنسان، فقد وجب التعامل معها من زاوية أعمق وأرحب، وهي: زاوية علم النفس الإدراكي. وبهذه النقلة النوعية، سيكون علم اللسانيات ملزَمًا للاستفادة من علوم معرفية وإنسانية متعددة، بل يربط معها صلات قوية، إن البحث في الملكات يقتضي البحث في العلوم المتصلة بهذا. وهكذا، غدت اللسانيات علمًا قويًّا قادرًا على التعامل مع المعطيات اللغوية تعاملًا عميقًا ومنسجمًا، وبرؤى ومناهج علمية جديدة، استمد بعضها من علوم أخرى صارت بعد ذلك جزءًا لا يتجزأ من الدراسة اللسانية الحديثة، منها: المنطق، والفلسفة، والسيميائيات، والإحصاء، والرياضيات، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والجغرافيا، والتاريخ، والثقافة..

إن الحديث، في وقتنا الراهن، عن الحاسوب، والهاتف المحمول، والإلكترونيات بأنواعها، ما كان ليتحقق لولا الثورة المعرفية التي أحدثها تكامل حقلين معرفيين أساسيين، وهما: علم اللسانيات، وعلم الرياضيات... لقد مكَّنَنا هذا العلم الأخير من تحويل اللغة من كونها رموزًا لغوية إلى كونها رموزًا رياضية ومنطقية، فأمكن برمجتها حاسوبيًا، وإرسال الرسائل الإلكترونية، واستقبالها، وقراءتها بشكل عادي ومقروء، وهذا ما دفع بعض علماء اللغة والرياضيات إلى تعميق الدراسة في اللغة رياضيًّا، ومن هؤلاء نجد كورناي أندراس الذي ألَّف كتابًا بعنوان: (اللسانيات الرياضية)، وحاول أن يقدم فيه مفهومًا

10 - Á. Gallego & D. Ott (eds.). 50 Years Later: Reflections on Chomsky's Aspects. Cambridge, MA: MITWPL, 2015, p. 211.

11 - Ibid.

12 - Ryan M. Nefdt. "The Philosophy of Linguistics: scientific underpinnings and methodological Disputes". *Philosophy Compass*. (November 2019). See :https://www.researchgate.net/publication/337242526_The_Philosophy_of_Linguistics_scientific_underpinnings_and_methodological_disputes

آخر للغة، بما يسهل على عالم الرياضيات والمتخصص في الإلكترونيات فهمه واستيعابه[13].

وقد أشار الدكتور صلاح فضل في كتابه الممتع (بلاغة الخطاب وعلم النص)[14] إلى أهمية علوم؛ مثل (علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الجمال) في تحليل الخطاب، وأفرد لكل علم محورًا خاصًا من كتابه، وبين تداخل هذه العلوم مع لسانيات النص، ومن هُنا صارت هذه العلوم روافد أساسية للسانيات في التعامل مع اللغة: وصفًا، وتحليلًا، وتفسيرًا، وهو ما سيؤدي في مراحل زمنية مختلفة إلى توسيع مجالات البحث اللساني، وظهور فروع كثيرة منه: كاللسانيات التطبيقية، واللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية، واللسانيات الحاسوبية، واللسانيات الإثنية، واللسانيات الجغرافية.

وأمام هذا التطور المتشعب في فروع اللسانيات الكبرى، ظهرت فروع علمية لسانية أخرى تسعى إلى تحليل اللغة تحليلًا جديدًا، ويبقى أهم فرع لساني يُعنى بتحليل الخطاب هو: ما يُعرف الآن بـ «**لسانيات النص**»، إنه فرع لساني ظهر نتيجة تكامل عدة علوم وتداخلها (علوم اللغة: من نحو، وصرف، ومعجم، وتركيب، ودلالة، وتداول)، ويسعى إلى الكشف عن العلاقات الداخلية في النصوص، وينظر في علاقات الترابط والانسجام بين الجمل وبين المعاني الدالة عليها، في إطار كلي وشمولي لا يخرج عن دائرة النص المدروس. لقد أفاد هذا الحقل المعرفي من «نحو الجملة، مبنى ومعنى، ومن الدراسات الأسلوبية، ومن المناهج والمعارف السابقة، ولكنه أضاف إلى تلك المناهج ما يثبت نصية النص وبلاغة الخطاب»[15]. ورغم هذا كله، ما يزال علم (لسانيات النص) في نظر بعض الباحثين علمًا غير قادر على النفاذ إلى عمق النصوص؛ نظرًا للاختلاف البيّن بين الباحثين في ماهية علم اللسانيات في ذاته. وهذا ما أقرته كرستين أدمتسين بالقول: «يُعد في لسانيات النص السؤال الخلافي وثيق الصلة، وهو: هل علم اللسانيات هو علم وصفي محض أو يجب أن يكون كذلك؟ وهل يدخل في مجال مهامه أيضًا التقسيم المؤسسي علميًّا للنصوص والنقد اللغوي؟ أو هل يجيز القيام بأحكام معيارية؟»[16]؛ لهذا، نعتقد أن هذا الفرع اللساني الجديد قاصر في النفاذ إلى عمق النص القرآني تحديدًا؛ لخصوصياته الكثيرة التي لا يمكن تجاهلها بأي حال، حيث إنّ النص القرآني – وإن كان نصًا لغويًا – نص إلهي المصدر؛ وهذا يكفي لتغيير البوصلة في التحليل والتفسير، والاستعانة بعدة معارف، وعلوم وعلامات لغوية، وغير لغوية في فهمه وتحليله. إن منتج الخطاب هُنا هو الله سبحانه وتعالى، وعليه لا ينبغي الوقوف عند القضايا اللغوية الظاهرة من بنية تركيبة، وعلاقات بين الجمل، وحذف واختصار، ما لهذا نزل القرآن! ولذلك أدركت قريش بسليقتها، وفطرتها اللغوية أن له لحلاوة، وأنّ عليه لطلاوة، وأنه يعلو، ولا يُعلى عليه، كما شهد بذلك الوليد بن المغيرة. أفيُعقل أن يتقيد البحث اللساني بالبنيات الظاهرة من آياته وسوره؟ وهل يُعقل أن تُخصص بحوث كاملة لدراسته، ثم تكون النتيجة أنه كلام منسجم ومتسق؟ وأن الروابط بين آياته متكاملة؟ إنه نص منسجم ومتسق بدايةً ونهايةً. ولعل الدكتور عبد الرحمن بو درع قد أدرك هذه الحقيقة وعبر عنها بالقول: «ولهذا، فلا يقتصر على علم لغة النص [يقصد لسانيات النص] في نسخته الأعجمية من أجل تحليل النص العربي البليغ؛ لأنه لا يقود بالضرورة إلى فهم أسرار النص إلا على وجه الاستئناس المنهجي دون العلم بكنه النص في أصله العربي المبين»[17]. وهذا ما حدا بالدكتور بو درع إلى الانتهاء إلى حقيقة أساسية، وهي: أنه يمكن أن يُستثمر هذا العلم (لسانيات النص) في صياغة «أنموذج تحليلي يستخرج أعماق النص، ويكسف قيمه الجمالية، بل ليُكتشف به مزيد من المزايا الجمالية التي تنطوي

13 - See, Jain, Lakhmi C., Wu, Xindong, Advanced Information and Knowledge Processing series. (New York: Springer Publishing, 2008), p. 1-8.

14 - صلاح فضل، «بلاغة الخطاب وعلم النص»، **مجلة عالم المعرفة**، العدد 164 (أغسطس 1992)، ص 9-49.

15 - عبد الرحمن بودرع، «في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم»، **بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية**، تحت إشراف وتنظيم جامعة الملك سعود وكرسي القرآن الكريم وعلومه، تاريخ المؤتمر: 1434/4/6هـ الموافق 2013/02/16م)، ص 11.

16 -كرستين أدمتسين، **لسانيات النص: عرض تأسيسي** (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 2009)، ص 70.

17 - بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص 12.

عليها اللغة العربية ذاتها».[18] وقد نبّه الجاحظ إلى أهمية الدراسة القرآنية في إمكانية تصحيح استعمالنا للألفاظ في اللغة العربية في حياتنا اليومية وحسن توظيفها، حيث قال: «وقد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة]...[والعامة، وأكثر الخاصة، لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث]...[والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال»[19].

1 - نحو العلامة[20] الوجودي وتكامل المعارف والعلوم

إن التصور المعرفي الذي نتبناه لا يقوم على توجه معرفي واحد، ولا حتى على توجهات معرفية متقاربة ومتداخلة في أساسها ومنطلقاتها، إنه تصور لا ينظر إلى الوحدة اللسانية – مهما صغُرت أو كبُرت – على أنها مجرد «قطعة أو مقطع»، وإنما باعتبارها علامة موجهة نحو المعنى وحاملة له، والعلامة هي كل وحدة لسانية تحمل المعنى أو توجهنا إليه، إنها «بديل لإحضار الغائب، سواء أكان ذلك بالقياس العقلي، أم بالخبر التصديقي]...[وقد تكون حقيقة ثابتة تحمل خصوصياتها التركيبية، والدلالية، والتداولية في ذاتها]...[وقد تكون حقيقة متحولة مجازًا وتأويلًا»[21]. وبهذا المعنى تصبح العلامة متعددة ومتشعبة، يمكن تصنيفها إلى عدة أنواع كبرى، منها:

أ - **العلامة اللسانية، وفروعها هي: العلامة الصوتية ويبحث فيها علم الأصوات، والعلامة الصرفية، ويبحث فيها علم الصرف، والعلامة النحوية التركيبية، ويبحث فيها علم النحو، والعلامة المعجمية، ويبحث فيها علم المعجم، والعلامة السياقية، ويبحث فيها علم الدلالة والتداوليات، وهكذا... إذاً**، «تعمل هذه المستويات مجتمعة داخل البنية اللغوية، ومن هنا فإن العلاقة القائمة بين المستويات اللغوية هي علاقة منظمة ومنسقة، وبهذا نستطيع أن ندرك أن نظام المعنى في الجملة العربية يخضع لنهايات الكلمات، تلك النهايات المتعلقة بظاهرة الإعراب، التي تمّاز بها اللغة العربية دون سواها، هذه الظاهرة تترجمها وحدات وعناصر لغوية، تعمل بواسطتها من الناحية الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية، والسياقية؛ لتنصهر كلها في حقل علمي ومعرفي واحد، هو الحقل الدلالي»[22].

وبهذا، على المشتغل بتحليل الخطاب أن يكون ملمًا بعلوم اللسان مجتمعة، يقول ابن خلدون: «ولا بد من معرفة علوم اللسان... وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام، حسبما يتبين في الكلام عليها فنًا فنًا، والذي يتحصل أن المُقدَم منها هو النحو، إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة؛ فيُعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر. ولولاه لجُهل أصل الإفادة، وكان من حق علم اللغة التقدم، لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير، بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمُسنَد إليه؛ فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر؛ فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة»[23].

---

18 - المرجع نفسه، ص 12.

19 - أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، **البيان والتبيين** (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998)، ج 1، ص 20.

20 - لن نقف عند تعريف العلامة لغة واصطلاحًا لوجود كتب وأبحاث كثيرة تطرقت له، كما أن بحثنا هذا موجه للمتخصصين، وهم يدركون مسبقًا تعريف العلامة وأنواعها وعلاقتها بألفاظ أخرى: كالسمة والوسم والإشارة والدلالة، فضلًا عن أن مجال هذه الدراسة مقيد بتوجهات مؤتمر (أثر اللسانيات الذي ينظمه مركز ابن خلدون بجامعة قطر)، ولا يسعنا تقديم تفاصيل لا تفيد الدراسة الآن.

21 - أحمد حساني، **العلامة في التراث اللساني العربي: قراءة لسانية وسيميائية** (الرياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، 2015)، ص 5-6.

22 - صفية مطهري، «التفاعل الدلالي بين المستويات اللسانية»، **مجلة التراث العربي**، العدد 112 (ذو الحجة 1429، كانون الأول 2008)، ص 261.

23 - عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، **المقدمة** (سوريا: دار يعرب، 1425هـ/2004م)، ص 367.

وهنا يصبح علم اللسانيات أهم علم يمكن الاستعانة به في تحليل العلامات اللغوية على اختلافها؛ لما له من قوة تصورية نظرية وتحليلية، وبما يوفره من مناهج صارمة في التعامل مع المعطيات المختلفة.

ب - **العلامة غير اللسانية**، ويدخل فيها كل العناصر التي لا تنتمي إلى دائرة اللغة، ولكنها تؤثر في المعنى بشكل أو بآخر، من إشارات، ورموز، وألوان، وأشكال وغيرها، ويختص بها علم السيميائيات، لقد أصبح هذا العلم أساسيًا في أي معرفة إنسانية، لا سيما التي تقوم في أساسها على العلامة؛ لغوية كانت، أو غير لغوية؛ لأنه يهتم بدراسة العلامات على اختلافها، فيستخلص القوانين المتحكّمة فيها، والدّلالات الناجمة عنها. وقد تنبه بعض الفقهاء والعلماء المحدثون في زماننا إلى أهمية هذا الحقل المعرفي. يقول الدكتور علي جمعة في كتابه (قضية تجديد أصول الفقه): «وهناك خدمة أخرى تتمثل في الاستفادة من الدراسات اللغوية الحديثة، خاصة في (**علم السيمانتيك**)، وما يشتمل عليه من تحليل للكلمات ومضمونها ومردودها، وعلاقة ذلك بالحقيقة والمجاز، ودرجات هذا المجاز، وما يمكن أن يؤديه ذلك الدرس من تيسير تحصيل علم الأصول من جهة، وإلى فتح أبواب الفهم للمصادر الشرعية (قرآنًا، سنة) يتيح توصيف الواقع وإيقاع الحكم عليه بطريقة أدق بكثير مما هو عليه الآن، ولا يخفى ما في هذا من دقة الحفاظ على مناهج السلف الصالح، وعدم الوقوف في نفس الوقت عند المسائل المثارة عندهم»[24].

كما يدخل في العلامة أيضًا كل ما ينتمي إلى دائرة العلامة الوجودية، والتي تُعدُّ السنن الكونية التي تنظم حركية الوجود والموجودات معًا.

ج - **العلامة الشرعية**: وهي كل علامة لا تفسّر بشكلها الصحيح إلا في ضوء علوم الشريعة، حيث إن ألفاظًا، من قبيل: (الإيمان، أو الإحسان أو الكفر أو الفسق) لا يمكن تفسيرها لغويًا فحسب؛ لأنها ألفاظ مرتبطة بالاعتقاد من جهة، وتنتج عنها أحكام شرعية من جهة أخرى؛ لذلك، ندخل علوم الشريعة أساسًا في تفسير هذا النوع من العلامات وضبطها، وبهذا نكون في حاجة إلى علم المصطلح القرآني، وعلم الفقه، وعلم الأصول، وعلم التفسير، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم المناسبة.

إن محلل الخطاب القرآني الذي لا يتسلح بهذه العدة القوية والمتشعبة من المعارف والعلوم المتكاملة، لا يمكنه النفاذ إلى مقاصده وغاياته، أو حتى يقترب منها، «لقد فرضت طبيعة المعالجة والتحليل في نحو النص قارئًا متمرسًا، لا تقليديًّا، يعتمد تلك الأدوات اللغوية المباشرة، ويفسر ظاهرة هذه التتابعات على السطح، وإنما ينفذ إلى ما هو وراء هذه التتابعات اللغوية المكتسبة من خلال معارفه وأفكاره والسياقات الحضارية والأعراف الاجتماعية»[25].

ولهذا، قلنا: إن علم لسانيات النص لا يمكن أن يمدنا إلا بمعطيات محدودة؛ ولهذا، نعدّه مجرد فرع علمي يدخل في دائرة التصور الذي نقترحه، وهو «نحو العلامة الوجودي» بديلًا معرفيًّا ومنهجيًّا في التعامل مع الخطاب القرآني دراسةً وتفسيرًا، وفيما يلي بيان لمفهوم هذا التصور ومبادئه الكبرى.

2 - نحو العلامة الوجودي وتحليل الخطاب القرآني:

ننطلق من فكرة أساسية نجملها في أن لكل شيء في هذا الوجود علامة، ولا سبيل إلى الكشف عن كنه ذلك الشيء إلا بالوصول إلى العلامة (أو العلامات) الدالة عليه. كما ننطلق من أن لهذه العلامة نحوًا (نظامًا) تنتظم فيه وتتأطر داخله، كما نرى أنّ العلامة نظام يحكم الوجود والكون كله، وهي دليل الإنسان إلى كل شيء فيه، ثم هي دليله إلى ربه، إنها قاعدة

24 - علي جمعة، **قضية تجديد أصول الفقه** (القاهرة: دار الهداية، 1414هـ/1993م)، ص 49.

25 - عبد البديع أشرف عبد الكريم، **الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن** (القاهرة: مكتبة الآداب، 2008)، ص 73.

وجودية قبل أن تكون قاعدة لغوية، وهي سبيلنا إلى إدراك القضايا الظاهرة والقضايا الغيبية والمعنوية والعقلية، وعلى قدر تمكننا من ضبطها وفهمها يكون فهمنا لما نسعى إلى إدراكه؛ ولهذا اعتبر علم اللسانيات اللغة مجموعة من العلامات اللسانية، وعلى هذا الأساس ينبغي أن ينبى تحليل النصوص وأنواع الخطاب المختلفة، وهذا كله يقتضي أن ننطلق من المستويات اللسانية المختلفة – باعتبارها علامات – في إطار من التكامل والانسجام فيما بينها أولًا، وبينها وبين العلامات الوجودية والكونية ثانيًا.

3 - إنّ هذا التصور ينطلق من أساسين مكينين:

الأساس الأول: إنّ اللغة العربية لغة بشرية غير عادية، وبها من الخصائص المتنوعة والمختلفة ما لا يتوفر في غيرها من اللغات الأخرى إطلاقًا، وسنبين هذا في ثنايا هذه الدراسة، أنّ الله يختار الرسل والأنبياء ويصطفيهم بناء على ما هم عليه من عظيم خَلْق وخُلُق، وكذلك الحال في إنزال رسالاته، فلا بد أن يختار اللغة التي تحمل رسالته إلى العالمين لفظًا ومعنى، ولو لم تكن العربية مؤهلة – بما لها من خصائص متفردة – ما اختارها الحق تبارك وتعالى لحمل رسالته إلى العالمين. وقانون الاختيار في أي شيء يقتضي أولًا التميز على باقي الأنواع الأخرى بما يجعل الشيء المختار أهلًا لذلك الاختيار، كما يقتضي الاختيار ثانيًا الاصطفاء، أي تخليص «الشيء المُختار» مما قد يؤثر سلبًا في أداء رسالته. والعربية هنا لم تعد مجرد لسان قوم فقط؛ لأنها لم تعد تخصهم وحدهم بعد أن أصبحت حاملة لرسالة الله إلى الناس كافة، إنها خرجت من دائرة ضيقة (لغة العرب بشبه الجزيرة العربية) إلى دائرة أرحب وأكبر، هي دائرة العالمِينَ أجمعين. وعليه، فلم تعد لغة عادية من عدة أوجه: **الوجه الأول**: من جهة الرسالة التي تحملها، وهي رسالة عظيمة، رسالة الله إلى الناس، **الوجه الثاني**: إنها اللغة الوحيدة التي تكلم الله سبحانه بها لفظًا ومعنى، وهذا يعطيها من التشريف ما لا يُعطى لغيرها، **الوجه الثالث**: أنها لغة خالدة؛ إذ ما دامت حاملة للقرآن الكريم، وهو كلام الله الخالد، فلا بد للوعاء أن يخلد بخلود محتواه.

الأساس الثاني: إن فلسفة القرآن الكريم تنسجم مع نظام العلامات، إنه كتاب علامات؛ إذ ما من معنى أو غاية أو مقصد نص عليه إلا وهو محكوم بالعلامة وخاضع لسلطانها، إنّ القرآن الكريم كله كتاب علامات تتوزع على نوعين كبيرين: علامات لغوية: لأنه أُنزل بلسان عربي مبين، ولا سبيل لفهمه إلا بفهم العلامات اللغوية المختلفة؛ ولذلك يسميه العلماء بالكتاب المسطور، وعلامات كونية وجودية؛ لأنه يدعونا إلى تأمل الوجود حولنا، وتتبع علاماته الدالة على الله سبحانه، فتقودنا في النهاية هذه العلامات مجتمعة إلى الإيمان بالله علمًا ويقينًا، وهذا ما يصطلح عليه العلماء بالكتاب المنظور؛ لذلك يدعونا في كثير من آياته إلى تتبع العلامات الدالة على الله وعلى وحدانيته، وعلى بديع صنعه لهذا الكون، ويمكن أن نقدم بعض الآيات لبيان أن نحو (نظام) القرآن كله هو نحو علامة، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 15-16]. لقد عبّر القرآن الكريم تعبيرًا صريحًا، بأنه لا سبيل إلى الهداية إلا بالنظر في العلامات الكونية وتأملها؛ فجعل الله رواسي الأرض والأنهار وسبلًا أخرى سببًا للهداية (لعلكم تهتدون)، ثم أكدها بالقول (وعلامات) جمعًا، للدلالة على أنها متعددة كثيرة تقتضي من يقتفي أثرها ويتتبعها، كما يهتدي الناس بالنجوم في ظلمات الليل. إن النجوم هي مصابيح بوصف القرآن الكريم ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12]، والمصابيح إنما جُعلت لتكون نورًا لنا نستنير بها؛ حتى لا نضل ولا نقع في ظلمة الحياة/الليل؛ فهي علامات بهذا المعنى تقودنا إلى الطريق الصحيح، وهي في الآية السابقة ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

إن هذا التصور يتخذ العلامة أساسًا له في التحليل، فيتتبعها ويحللها ويقرأها في سياقاتها المختلفة، كما أن هذا التصور يؤمن بأن العلاقة بين العلامات اللغوية، المشكلة للغة والتواصل بين الناس، ما هي إلا تمثلًا أو اختصارًا أو امتدادًا

للعلامات الوجودية. ولا نقصّر النحو هنا على القواعد النحوية التي جمعها النحاة في كتبهم، وإنما نعني به العلامة المشكلة للمعنى، ومن هنا يكون تصورنا للنحو هو التصور الذي انطلق منه علماؤنا الأوائل، والذي ينظر إلى البنية العامة للنص في تشاكلها وتداخلها، وتأثير بعضها في بعض. إنه كل ما يستقيم به الكلام إنتاجًا أو فهمًا أو تأويلً، وعليه تصبح علوم اللغة: (النحو، والصرف، والمعجم، والدلالة، والتداولية) كلها مجرد مستويات لبنية عامة تشكل الخطاب في صورته النهائية.

ولا ندعي أننا أول من حاول تحليل الخطاب بالنظر إلى العلامات المبثوثة فيه، كما ننبه إلى أن كثيرًا من العلماء: (نحويين، وبلاغيين، وأصوليين، ومفسرين) قد أشاروا إلى أهمية العلامة في التدليل على المعاني. واستعملها ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – في تفسير القرآن الكريم من خلال ربط المعنى بعلاماته اللغوية والكونية، أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن ابن عباس قال: «دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسألهم عن ليلة القدر؟ فأجمعوا أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس: فقلت لعمر: إني لأعلم، أو إني لأظن أي ليلة هي؟ قال عمر: وأي ليلة هي؟ فقلت: سابعة تمضي، أو سابعة تبقى من العشر الأواخر، فقال عمر: ومن أين علمت ذلك؟ فقال: خلق الله سبع سماوات، وسبع أرضين، وسبعة أيام، وإن الدهر يدور في سبع، وخلق الله الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، لأشياء ذكرها، فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له». ومثل ذلك: ما رُوي عن ابن عباس من أن القرآن أشار بكلمة «هي» في هذه السورة إلى ليلة القدر، وأنها ليلة السابع والعشرين من رمضان؛ لأن رقم الكلمة في السورة، وهو سبع وعشرون، ومثله أيضًا الاستدلال بتكرار كلمة «لَيْلَةِ الْقَدْرِ» ثلاث مرات في هذه السورة، وأنها مكونة من تسعة أحرف، فيكون المجموع سبعة وعشرين حرفًا، وعدد كلمات هذه السورة ثلاثون كلمة بعدد أيام الشهر القمري الكامل، وعلى هذا فليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين»[26].

ما ندعيه في هذا المقام، إذن، هو أننا جعلنا العلامة تنتظم في إطار تصور معرفي واضح ومحدد المبادئ والأركان، ويخضع لضوابط المنهج العلمي، كما أننا نربط هذه العلامات اللغوية بالعلامات الوجودية والكونية تنتج عنهما أفهام ودلالات جديدة؛ لأن النص الذي نطبق عليه هذا التصور هو في أساسه كتاب لغوي، وكتاب وجودي.

ثانيًا: مستويات الدرس اللساني والكشف عن المعاني والدلالات في الخطاب القرآني

1 - المستوى الصوتي / العلامة الصوتية، الخطية[27]:

تُعد الحروف أول مستوى لغوي (علامة) في الألسن جميعًا، وهو المدخل الذي يُبنى عليه باقي المستويات الأخرى، ولقد حددت اللسانيات نوعين من المكونات لهذا المستوى، هما: الفونيم: وهو أصغر وحدة غير دالة، وهو ما يقابل في عرف علماء الأصوات العرب الصوت الغُفْل غير المركب بعد، المورفيم: وهو أصغر وحدة دالة، وهو ما يقابل المقطع في عرف علمائنا العرب، هذان المكونان، إذن، هما ما يشكل الكلمة (المفردة) التي تحمل معنى محددًا، وقد توقف التفكير اللساني الغربي عند هذا الحد، وتبعه فيه اللسانيون العرب، فنقلوا عن بعض علماء اللسانيات الغربيين، مثل فيرديناند دي سوسير قوله: باعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول. وهذا ما لا نعتقد صوابه عندما يتعلق الأمر بالكلمة، ولا حتى بالصوت، في اللغة العربية، لا سيما إذا كانت في كتاب الله المعجز.

ولعل بعض علمائنا الأجلاء قد تنبهوا إلى هذا الأمر، فأشاروا – ولو باقتضاب – في بعض مؤلفاتهم إلى أن الحروف العربية لها خصوصية متفردة، وليست كباقي الحروف في اللغات الأخرى، من هؤلاء ابن منظور في مقدمة كتابه (لسان

26 - محمد محمود، «هذا من ملح التفسير لا من متين العلم»، موقع **إسلام أون لاين**، 2019/5/31، تم الاسترجاع في 2021/4/15 على الرابط: https://islamonline.net/30066

27 - لن ندخل في تعريف العلامة الصوتية والعلامة الخطية؛ لأن المقام لا يسمح بذلك، وما يهمنا هنا هو أن نعتبر الحرف العربي، سواء في صورته المنطوقة (الصوت) أو صورته المكتوبة (الخطية) شيئًا واحدًا.

العرب)، لقد اعتبر التعرف على الحروف (الأصوات) وخواصها وخصوصياتها علمًا ينبغي الإقبال عليه، بل نجده يربط الحرف العربي بالوجود، والأفلاك، وبعالم السحر، فأي سلطة هذه التي يمتلكها الحرف، وأي قوة، وأي تأثير له على الموجودات؟ يقول: «ولها خصوصية بالأفلاك المقدسة وملائمة لها، ومنافع لا يحصيها من يصنفها... منها: ما هو حار يابس طبع النار، وهو الألف، والهاء، والطاء، والميم، والفاء، والشين والذال، وله خصوصية بالمثلثة النارية (يقصد الأبراج)، ومنها: ما هو بارد يابس طبع التراب، وهو الباء، والواو، والياء، والنون، والصاد، والتاء، والضاد، وله خصوصية بالمثلثة الترابية، ومنها: ما هو حار رطب طبع الهواء، وهو الجيم، والزاي، والكاف، والسين، والقاف، والثاء والظاء، وله خصوصية بالمثلثة الهوائية، ومنها: ما هو بارد طبع الماء، وهو الدال، والحاء، واللام، والعين، والراء، والخاء، والغين، وله خصوصية بالمثلثة المائية»[28].

هذا كلام عجيب يربط الحرف العربي بالوجود، وهو ما ينسجم تماما مع تصورنا «نحو العلامة الوجودي»، بهذا المعنى، إذن، تصير الحروف علامات صوتية أو خطية على معانٍ عديدة، بعضها متعلق باللغة، وبعضها متعلق بالوجود والموجودات (الكواكب، السحر، الأبراج...) فهل يُعقل أن ينظر إلى الحرف العربي – بعد هذا – نظرة عادية، أو يتعامل معه الباحثون اللسانيون تعاملًا سطحيًا؟

كما نبّه سيبويه إلى أنّ الحركات في العربية – وهي أبعاض حروف – إنما هي تمثلات لما في النفس من معانٍ، وليست مجرد علامات لغوية اعتباطية، كما هي في المنظور اللساني. يقول: «إنما كان الرفع في هذا الوجه لأن هذه خصال تذكرها في الرجل...»[29]، ويقول أيضًا: «فإذا رفعت فالذي في نفسك ما أظهرت»[30]. ومن هنا، اختلفت كلمات بعض المفردات في القرآن الكريم، من ذلك مثلا: قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾ [التوبة: 28]، والشاهد هنا هو مجيء كلمة (نجَس) بفتح عين الكلمة للدلالة على النجاسة المعنوية المتمثلة في الكفر والخروج من دائرة الإيمان، في حين دلت بكسر عينها (نجِس) على النجاسة المادية التي تزول بتنظيف الجسد أو الثوب من كل وسخ أو درن، وهكذا صار للمفردة الأولى في الآية حكم شرعي (لا يقربوا المسجد الحرام)، وليس مجرد معنى فقط، في حين يكون للمفردة الثانية (نجِس) معنى لغوي لا يوجب حكمًا شرعيًا.

وقد خص ابن خلدون الحروف أيضًا بكلام كثير في (المقدمة)، وبيّن كيف أُستخدم في العد والحساب وفي علاج المرضى[31]. وهذا يعني أن الحرف له «طاقة» مؤثرة في المرض والمريض معًا. وقد بين – بتفصيل أيضًا – الباحث أحمد مطلوب[32] العلاقة العجيبة بين الحروف وبين الأرقام في الحساب، وعلاقتهما معًا بالموجودات، مما لا يسعنا الوقوف عنده هُنا.

كما عدّ ابن عربي الحروف العربية «سرًا من أسرار الله تعالى، والعلم بها أشرف العلوم المخزونة عند الله»[33]، أما الرازي فخصها بكتاب مستقل (الحروف)، وقسمها إلى «الحروف الفكرية: هي صور روحانية في أفكار النفوس مصورة في جوهرها قبل إخراجها، معانيها الألفاظ، والحروف اللفظية: هي أصوات محمولة في الهواء، مدركة بطريق الأذنين، بالقوة السامعة، والحروف الخطية: هي نقوش خطت بالأرقام في وجود الأرواح وبطون الطوامير مدركة بالقوة الناظرة، بطريق العين»[34].

28 - أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر، 1414هـ)، ج 1، ص 19.

29 - أبو بشر عثمان سيبويه بن قنبر، **الكتاب** (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1977)، ص 361.

30 - المرجع نفسه، ص 282.

31 - ابن خلدون، **المقدمة**، ص 547-573.

32 - لمزيد من التفصيل انظر كتابه: **الأرقام العربية** (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983).

33 - محيي الدين محمد بن علي ابن عربي، **رسائل ابن عربي** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001)، ص 83.

34 - خليل بن أحمد الفراهيدي وآخرون، **ثلاثة كتب في الحروف**، تحقيق رمضان عبد التواب، (الرياض: دار الرفاعي، 1402هـ/1982م)، ص 147.

إن الصوت/الحرف العربي له ميزة على غيره من الأصوات أو الحروف في اللغات الأخرى، إنه مؤثر في الوجود والموجودات، وحامل لمعان متعددة؛ لا سيما في القرآن الكريم، وهو ما دفع أهل الشريعة والتفسير إلى الاهتمام به، وتشكل الحروف في بداية المفردات نقطة ارتكاز توجه نحو المعنى، من ذلك مثلًا: (جَنِين - جَنّة - جُنَيْنة - جُبْن - جِنّ) فإنها تدل في معناها العام (النووي) على الخفاء، خاصة إذا جاءت متبوعة بحرف النون؛ فالجنة أخفاها الله إلى يوم القيامة، وكذلك (الجنّ) و(الجنين) لا يُريان، و(الجُنيْنة) هي الحديقة الخلفية وراء المنزل، فهي مخفية عن أعين الناس، و(الجُبْن) مادة موجودة في الحليب، لكنها خفية ولا تظهر إلا بعد عدة عمليات لاستخراجها، وأما (جمهور - جامعة - الجمعة - الجماعة - الجم..) فإنها تحمل معنى الكثرة، خاصة حين تكون متبوعة بحرف الميم، فتأملها.

هذه أمثلة بسيطة تبين أنه لا ينبغي أن نتعامل مع الحرف/الصوت العربي تعاملا لسانيًا جافًا؛ إنها حروف نفسية ووجودية وقرآنية نورانية؛ لذلك نفهم لماذا اختص الله الحرف في القرآن بالثواب عند القراءة؟ فجعل لكل حرف حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، إنه حرف تكلم به الله، فلا بد أن يحظى بالتشريف وبالنورانية الإلهية، ما دام الأمر كذلك، فلا بدّ أن لهذا الحرف ميزةً وخصيصة ليست لغيره من الأصوات في اللغات الأخرى، ومن هنا وجب العناية به في الدراسات المعنية بتحليل الخطاب القرآني على الأقل.

إن العربية – بهذا المعنى – تتجاوز المبدأ اللساني «الصوت أصغر وحدة غير دالة»، ويصبح الصوت فيها دالًا وحاملًا للمعنى. إن «مقومات البناء الصوتي تلعب دورًا حاسمًا في التشكيل العام للدلالة وبناء المعنى، رغم أن الصوت لا يشكل في اللسان – مثل المعدن بالنسبة إلى القطعة النقدية – سوى جانب واحد من جوانب عدة في تحديد قيم العلامة»[35].

وتتضح أهمية العلامة الصوتية في القرآن الكريم في كثير من السور[36]، منها: سورة (ق). لقد سُميت السورة باسم صوت (القاف)، وبالرجوع إلى السورة نجد أن هذا الصوت مهيمن من بدايتها إلى نهايتها؛ فقد ورد 65 مرة في مجموع السورة. وإذا ربطنا هذا الحضور المكثف لـ (القاف)، آخذين بعين الاعتبار خصائصه الداخلية (صوت شديد انفجاري يخرج من الحلق)، وتأملنا في مضمون السورة ومعانيها نجد أنَّ هناك تناسبًا بديعًا جدًا، يقول الزركشي في (البرهان): «إن السورة مبنية على الكلمات القافية: من ذكر القرآن، ومن ذكر الخلق، وتكرار القول ومراجعته مرارًا، والقرب من ابن آدم، وتلقى الملكين، وقول العتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق، والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، وذكر القلب، والقرن، والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل، والرزق، وذكر القوم، وخوف الوعيد، وغير ذلك. وسر آخر، وهو أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح»[37].

والقوة نفسها نجدها حاضرة في سورة (الفلق) التي طغى فيها صوت (القاف) كذلك؛ فجاء متناسبًا في معناه (الشدة والقوة) بمضمون السورة ككل، وبالكلمات التي ورد فيها القاف (الفلق - خلق - وقب - العقد)، إنها سورة تدور في فلك معنى السحر والحسد وما يرتبط بهما من أعمال الشياطين؛ ولذلك فهي مؤطرة من بدايتها إلى نهايتها بصوت (القاف) الذي يخرج من وسط الحلق للدلالة على عمقه وغوره، وهذا كله ينسجم مع المعاني التي أرادها الله سبحانه وتعالى؛ إذ يدعونا للتعوذ من كل ما قد يصيب المؤمن من أمراض القلوب والأبدان حقدًا كان أو حسدًا، والحقد والحسد يتمان من خلال ربط عقد على حبل أو ما شابه. كما أن (القاف) جاء في وسط لفظة (العقدة)، وهو ما يتناسب مع طبيعة العقدة حقيقة. وكان رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يتعوذ من الليل إذا وقب، وقد ذكر ذلك ابن منظور في معجمه: «ورُوي عن عائشة

35 - مصطفى غلفان، **اللغة والإنسان والعلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأول** (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2017)، ص 254.

36 - اهتم بعض العلماء بحروف الاستفتاح في بداية السور، ونظروا إليها باعتبار أنها بدايات موجهة للمعاني، منهم: الزركشي في (البرهان)، حيث عقد بابًا بعنوان: (أسرار الفواتح والسور)، وكذا السيوطي في كتابه (الإتقان)، كما أشارت إلى ذلك عائشة عبد الرحمن في كتابها (الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق).

37 - أبو عبد الله بدر الدين محمد الزركشي، **البرهان في علوم القرآن** (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1376هـ/1957) ج1، ص 169.

– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – أنها قالت: قال رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لما طَلَع القمرُ: هذا الغاسِقُ إذا وقب، فتَعَوَّذي بالله من شَرِّه، وفي حديثٍ آخر لعائشة: تَعَوَّذي بالله من هذا الغاسقِ إذا وقب، أي الليل إذا دخَلَ وأَقْبَلَ بظَلامِه»[38]، كل هذه المعاني جاءت مؤطرة بصوت واحد (القاف) فتناسبت خصائصها الصوتية (الجهر والشدة والعمق) بشرّ الخلق، ولا يُوصف إنسان بأنه شرير إلا إذا بلغ حدا أقصى (أعمق) في الشر، كما تناسبت مع لحظة زمنية خاصة من أزمنة القمر/الغاسق، وهو الزمن المفضل لدى السحرة لتنفيذ سحرهم، وتناسبت أيضًا مع عَقْد عُقَدٍ متعددة على خيط أو حبل والنفث فيها، وإذا تأملنا صوت (القاف) نجده في بداية كل كلمة تدل على العمق والغور والشدة، من ذلك مثلًا: (القمر)؛ لأنه في أقصى السماء، و(القبر)؛ لأنه في عمق الأرض، و(القضية)؛ لأنها بلغت حدًا من التعقيد والعمق، و(القفار)؛ وهو العميق من الخلاء أو الصحراء حيث لا ماء ولا حياة، و(القعر)؛ آخر الشيء، وهكذا...

كما نجد تناسبًا بديعًا جدًا بين صوت (السين) وسورة (الناس) سواء فيما يتعلق بالسورة ومضمونها، أو فيما يتعلق بالصوت في علاقته بالمفردة التي ورد فيها، لقد ورد هذا الصوت في هذه السورة 10 مرات، ونعلم أن (السين) صوت مهموس، ومن معاني الهمس الإخفاء وعدم الظهور، وهذا المعنى حاضر بقوة في الكلمات التي ورد فيها، وهي (الناس) وردت خمس مرات، ومعناها مطلق الخلق/البشر مما لا تستطيع أن تحدده، أو أن تقف له على معالم ضابطة، فكأن المعنى اختفاء صفة الفرد وما يجعله مميزًا عن غيره؛ لأنه صار داخلًا في مجموع مبهم هو (الناس)، و(الوسواس والوسوسة) هي ما يكون من حديث الناس أو الشيطان سرًا (خفاء) لا جهرًا. وأما (الخناس) فمن الفعل (خنس)، «والخنوس الانقباض والاستخفاء [...] وخَنَس الرجل إذا توارى وغاب»[39].

2 - المستوى الصرفي النحوي / العلامة الصرفية والنحوية

يعد «الجانب النحوي في التأويل اللغوي للنصوص القرآنية بالغ الأهمية، ولا سيما في ميداني التشريع والعقائد»[40]؛ لأنه مرتبط بأحكام فقهية تنتج عن الفهم؛ لذلك، توجت مجموعة من الدراسات اللغوية «وجهة نحوية قرآنية، فكانت دوافع فهم القرآن الكريم، ومعرفة أسراره، وفهم تراكيبه، وبيان أساليب نظمه، وبيان أثرها في بيان الأحكام التشريعية، قد أدت إلى إيجاد النحو الذي استنبط من أساليب القرآن ونظمه، وهو النحو القرآني»[41]. ومما يبين أهمية علم النحو في استنباط الأحكام ما أورده الكسائي قائلًا: «اجتمعت أنا وأبو يوسف القاضي عند الرشيد، فجعل أبو يوسف يذم النحو ويقول: وما النحو؟ فأردت أن أعلمه فضل النحو فقلت: ما تقول في رجل قال لرجل: أنا قاتلُ غلامِك! وقال آخر: أنا قاتلٌ غلامَك! أيهما كنتَ تأخذ به؟ قال: آخذهما جميعًا! فقال الرشيد: أخطأت – وكان له علمٌ بالعربية – فاستحيى وقال: كيف ذلك؟ فقال: الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال: أنا قاتلُ غلامِك بالإضافة لأنه فعل ماضٍ، وأما الذي قال: أنا قاتلٌ غلامَك بالنصب فلا يُؤخذ؛ لأنه مستقبل لم يكن بعد، كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ..﴾ [الكهف: 23-24]، ولولا أن المنون مستقبل ما جاز فيه غدًا. فكان أبو يوسف بعد ذلك يمدح النحو والعربية»[42].

ومما تنبغي الإشارة إليه هنا أن النحو لا ينحصر في مجرد أواخر الكلمات من علامات إعرابية، ولا في القواعد التي حددها النحاة في كتبهم، وإنما هو علم يشمل في دائرته علومًا أخرى، أولها: علم الصرف؛ لهذا، فهما علمان مقترنان لا ينفصلان، ولا يحتاج الأمر إلى مزيد بيان أو توضيح، مما نقدمه مثالًا على أهمية العلامة النحوية والصرفية في ضبط معنى

38 - ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص 71.

39 - المرجع نفسه، ج6، ص 71.

40 - محمود حسن الجاسم، **تأويل النص القرآني وقضايا النحو** (الأردن: دار كنوز المعرفة، 2016)، ص 12.

41 - محمود إسماعيل هناء، **النحو القرآني في ضوء لسانيات النص** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2012)، ص 32.

42 - أبو المحاسن يوسف اليغموري، **نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء** (ألمانيا: دار النشر فرانتش ستاينر، 1964)، ص 285.

الآيات القرآنية هذه الآية: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: 8]. تتضمن هذه الآية الكريمة خمس علامات أساسية تتضافر كلها في صياغة معنى لطيف لم نجده عند أي مفسر. هذه العلامات هي:

أ - **تصدرت الآية بـ (إنّ)**، وهي حرف ابتداء وتوكيد ونصب، تفيد أنّ معنى ما بعدها مؤكد.

ب - **العطف بالواو**؛ فقد جاء مكررًا مرتين: مرة بين (فرعون) و(هامان)، وثانية بين (هامان) و(الجنود)، والعطف بالواو في العربية يفيد الاشتراك في الحكم، يعني هذا أن المعطوفين معًا يشتركان في نفس الفعل والحكم، وهو هنا الفساد في الأرض، وهذا يجعلنا نقول إنّ حكم الفساد ينطبق على الجنود بنفس المقدار والدرجة، كما ينطبق على سيديهم (فرعون وهامان)؛ لأنهم كانوا يتصرفون تارة منفذين لأوامر سيديهم، وتارة من تلقاء أنفسهم.

ج - **الإظهار والإضمار:** يتجلى الإظهار في ورود اسم هامان معطوفًا على اسم فرعون (إنّ فرعون وهامان)، ويتجلى الإضمار في (وجنودهما) وأيضًا في (كانوا خاطئين). إنّ الضمير الأول (هما) علامة على أنّ هامان، وإن كان وزير فرعون، والوزير يقتضي أن يكون تابعًا ومنفذًا للأمر فقط، إلا أنه كان يحكم ويفسد في الأرض تمامًا كسيده؛ لذلك ورد اسمه مقترنًا باسم فرعون في الآية، وأما الضمير الثاني (واو الجماعة في كانوا) فيفيد أن الجنود كذلك داخلون في نفس الحكم، ولا يقلّون عن فرعون وهامان في الإثم والإتيان به، وقد عززت هذا المعنى لفظة (خاطئين)؛ لأنها جاءت بصيغة جمع المذكر السالم؛ ولذلك نجد الحق تبارك وتعالى نسب الفساد إلى (آل فرعون) وليس إليه وحده، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 49]؛ ليكون (آل فرعون) هم هامان والجنود أجمعون. ولما نزل عقاب الله عمّ الجميع دون استثناء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 130].

د - **الصيغة الصرفية (خاطئين):** لقد تتبعتُ هذه الصيغة في القرآن الكريم فوجدت أنها تُذكر في سياق الدلالة على تأكيد فعل الفاعل، لا على مجرد الدلالة على الاستقبال كما قال الصرفيون، وقد وردت في عدة آيات تدل على هذين المعنيين (التأكيد والاستقبال)، منها قوله تعالى في سورة يوسف متحدثًا عن امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: 29]. وأيضًا في قوله تعالى في نفس السورة: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: 97]. والصيغة الصرفية (خاطئ) اسم فاعل من الفعل (خطأ) بفتح الطاء، و(خطِئ) بكسرها، ويزاد في هذه الصيغة بالهمزة، فتكون (أخطأ يخطئ فهو مخطئ)، وهذا يجعلنا نميز بين صيغة (خاطئ) التي تفيد تعمد الوقوع في الخطأ مع العلم مسبقًا بأنه خطأ بيّن وإثم مبين، وعليه فإن فرعون وهامان وجنودهما أفسدوا في الأرض سفكًا، وقتلًا، ونهبًا، واستحياءً، وهم يعلمون أن ما يقومون به فساد، كما أنّ امرأة العزيز فعلت ما فعلت بيوسف وهي تعلم علم يقين أنه فساد يرفضه الشرع والعقل والناس، وكذلك الأمر بالنسبة إلى إخوة يوسف – عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – عندما قالوا: (إنا كنا خاطئين)؛ لأنهم فعلوا ما فعلوا بيوسف وهم يعلمون أنه خطأ مبين قبل أن يخوضوا فيه ويقترفوه. أما صيغة (مُخطئ) فتفيد أن الذي وقع في الخطأ لم يتعمد الوقوع فيه، ودون معرفة مسبقة منه بأنه خطأ، وهذا المعنى موجود في قوله تعالى في أواخر سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ [البقرة: 286]؛ لهذا، رُفع الإثم في الدين عن الناسي والمُخطئ والنائم، وليس عن المتعمد (الخاطئ).

وتتجلى أهمية الصيغة الصرفية في القرآن الكريم في التوجيه إلى معانٍ دقيقة وخفية لا يدركها حتى أهل الاختصاص؛ لعدم اهتمامهم بتأثير الصيغة الصرفية في المعنى، ومما نورده هنا معنى صيغة (اسم الفاعل). فما

وجدنا أحدًا من الباحثين المعاصرين أو المفسرين من وقف على معناها في كتاب الله، مع العلم أنها وردت بشكل مُكثَّف، من ذلك مثلًا: هذه الآيات: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]. وقال أيضا: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: 55]. وقال أيضا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

فقد ورد اسم الفاعل في هذه الآيات بشكل مكثف (جاعلٌ- متوفيك- رافعُك- مطهرُك- جاعلُ- رادّوه- جاعلوه)، ومعلوم أن اسم الفاعل في العربية يدل على من قام بالفعل، فهو يشبه في وظيفته وظيفة الفاعل، لكن السؤال الذي ينبغي أن يطرح: إذا كانت وظيفة اسم الفاعل هي نفسها تمامًا وظيفة الفاعل، فما وجه الاختلاف بينهما؟ وهل العربية تكثر من الصيغ والمفردات دون سياقات مخصوصة؟ وإذا كانت هناك سياقات مخصوصة، فما المعنى الذي يوجهنا إليه اسم الفاعل ولا نجده في الفاعل؟ ثم ما الفرق بين استعمالنا اسم الفاعل والفعل الدال على المستقبل (المضارع المقترن بالسين) في جملة ما؟

ومعلوم أن التشابه بين الفاعل واسم الفاعل حاصل من جهة الدلالة على من قام بالفعل، وكذلك التشابه حاصل بين الفعل المضارع واسم الفاعل من جهة الدلالة على الزمن المستقبل، فتقول مثلًا: (سأسافرُ غدًا) وتقول: (أنا مسافرٌ غدًا)، لكن الفرق بينهما أن الجملة الأولى تدل على حدث سيقع في المستقبل لكنه غير مؤكد الحدوث، لأن الفعل يقصد به الإخبار وليس التأكيد، أما معنى الجملة الثانية فإنها وإن دلت على حدث سيقع في المستقبل، إلا أن معناها يفيد أن حدوثه مؤكد ومتحقق لا ريب فيه؛ ولذلك، وجهنا القرآن الكريم إلى هذا المعنى اللطيف، ونبهنا إلى أنه كلما تحدثنا عن شيء يقع في المستقبل واستعملنا صيغة (اسم الفاعل) وجب علينا أن نتبع كلامنا بـ(إن شاء الله)، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: 23-24]، ومن هنا نقول إن قلت، مثلا: «غدًا سأسافر إلى الرباط» لا يجب أن تتبعها بجملة (إن شاء الله)، وإنما قولك إياها يكون من باب الاستحباب؛ لأن الفعل يدل على الإخبار لا على التأكيد، أما إن قلت: (غدًا أنا مسافر إلى الرباط)، فيجب أن تُتْبع كلامك بـ(إن شاء الله)، وعليه نفهم معنى اسم الفاعل في الآيات التي أوردناها هنا، حيث إنها تدل مجتمعة على أمر مؤكد الحدوث، وأنه واقع لا محالة، فعندما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أيقنت الملائكة مباشرة بوقوع ذلك، لهذا كان تساؤلهم عن طبيعة أفعال من سيُستخلَف، لا عن عمن أو متى سيُستخلَف في الأرض. وكذلك المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ...﴾ [آل عمران: 55] فهم عيسى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – أنها أفعال واقعة مؤكدة الوقوع، والأمر نفسه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7] ؛ لأنه كلام موجه لأم موسى، وهي الأم المكلومة الخائفة على ابنها الخوف الشديد ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]، فالمقام إذن مقام تأكيد من الله لها أن موسى راجعٌ إليها لامحالة، وأنه من المرسلين.

هـ- **العلامة السيميائية/الرمزية:** إنّ هذه الألفاظ (فرعون) و(هامان) و(جنودهما) تخرج من دائرة دلالتها المخصوصة على أشخاص تاريخيين في حقب زمنية معينة إلى دائرة إيحائية علاماتية (رمزية)؛ حيث يحيل (فرعون) إلى كل سلطان متجبر ظالم يحكم قومه بالفساد ويحض عليه، ومنه اشتققنا الفعل (تفرعن)، وأخرجنا (فرعون) من كونها اسمًا إلى كونها صفة نصف بها كل متجبر طاغية؛ ولذلك علينا – ونحن نقرأ القرآن – ألا

ينحصر تأملنا وفهمنا في فرعون «التاريخي»، وإنما ينبغي أن ينصرف الفهم إلى كل فرعون أبى إلا أن يفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل، والأمر نفسه ينطبق على اسم (هامان) ليُوصف به كل من يدخل في البطانة السوء المحيطة بالطاغية التي تعينه على الفساد، كما يحيل (الجنود) إلى كل ذي مسؤولية في الدولة يقبل أن ينصهر في بوتقة الفساد، ويسهم فيها مهما دنت رتبته ووضَعَت. وعليه، فإن كل موظف أو مسؤول يتحمل الوزر – وإن كان مأمورًا – فكيف إذا أسهم فيه من تلقاء نفسه؟ ومن رمزية/سيميائية هذه الآية أن عقاب الله لا ينزل بقوم إلا إذا عم فسادهم، وانخرط فيه صغيرهم وكبيرهم، وهذا حال الأقوام الذين ذكرهم القرآن جميعًا؛ إذ ما من قوم نزل بهم عقاب من الله إلا بعد أن صار الفساد فيهم طبعًا وأصلًا متأصلًا، ولك أن تتأمل أحوالهم في كتاب الله. وهكذا، تكون كثرة الفساد وسيادته في الناس والأوطان علامة على قرب عقاب الله الشديد لهم.

3 - المستوى المعجمي/العلامة المعجمية – الدلالية

من الأقوال المأثورة عن الشيخ الشعراوي، رحمه الله، متحدثًا عن أهمية وتأثير الكلمات في معاني الآيات في القرآن الكريم: «**كل كلمة عاشقة لمكانها، وكل موضع في القرآن جاذب لكلمته**». يقودنا هذا القول إلى الاقتناع بأنه لا يُوجد ترادف في العربية بشكل عام، ولا يُوجد في القرآن بشكل خاص. إن كل مفردة في المعجم لها سياقها أو سياقاتها المخصوصة حيث تُستعمل، ولا يمكن تعويضها بغيرها مهما كان المعنى واضحًا. من هنا وجب على محلل الخطاب القرآني أن يتعامل بفهم عميق مع كل مفردة ومعناها، أو معانيها التي تدل عليها من آية إلى أخرى، ومن سياق إلى آخر. إن الخطاب القرآني، إذن، خطاب غير عادٍ، وأنساقه اللغوية، والتركيبية، والدلالية على درجة دقيقة من الدقة والانسجام في التعبير، فلا سبيل، إذن، إلى التعامل مع مفرداته تعاملًا معجميًّا خالصًا، كما تفعل اللسانيات مع باقي اللغات الأخرى. وقد أكد الجاحظ على هذا المعنى بالقول: «فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أُخر، ولها حينئذ دلالات أُخر، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة، والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك»[43].

إن فهم قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47] لا ينبغي أن يقتصر على مجرد علاقة جنسية عابرة يمكنها أن تسبب حملًا، لا نحسب ذلك – والله أعلم – لأن المعنى أعمق وألطف وأبهى من هذا، لكن لا سبيل لنا للوصول إليه إلا بالفهم المتخصص للعلامة المعجمية في الآية والتي هي عماد هذا المعنى، إنّ المعنى هنا متعلق بلفظة أساسية هي (ولم يمسسني)، وهي من الفعل (مسّ) ووجب التفريق بين (مسّ) و(لمس) التي ينصرف إليها المعنى الأوليّ عند قراءتنا للآية، إن لفظة (لمس) مرتبطة باللمس المادي باليد أو بغيرها مما يحدث اتصالا بين جسدين أو بين شيئين؛ ولهذا عبر القرآن الكريم عن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة باللمس لا بالمس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 43]. أما (المسّ) فهو متعلق بالروح. ولهذا، يستعمل هذا اللفظ في القرآن بما دل على الروح أو النفس، لا بالجسد أو الاتصال المادي. من ذلك قوله سبحانه متحدثًا عن (الشيطان/الجن) عندما يتلبس بالأنفس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]. إنّ الشيطان يهاجم النفس/الروح، لا الجسد، والدليل في الآية نفسها، حيث إنها ربطت بين صنيع الشيطان وبين طبيعة من يفعل بهم ذلك (الذين اتقوا)؛ لأن الشيطان يسعى لإفساد الروح (الإيمان)؛ ليكون ذلك سببًا في ضياع تقوى المؤمن. ومن هذا المعنى

43 -- عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، **الحيوان** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1442هـ)، ج 1، ص 102.

أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 77-79]، فلا علاقة للمعنى – نهائيًا – باللمس باليد، ولو كان المعنى كذلك لكانت الآية (لا يلمسه إلا المطهرون)، وإنما المعنى لا يدرك كنهه، ولا يؤمن به ويتشرّبُه إلا المطهرون. وتدل على هذا المعنى مفردة أخرى في الآية نفسها (المطهّرون)، إنها اسم مفعول، مما يدل على أن الله هو الذي يختص بعض عبادة بالطهارة المعنوية والروحية فيدركون حقيقة هذا الكتاب، أما نحن فلأننا نتطهر فنحن (طاهرون)، وفرق كل الفرق بين (الطاهر) و(المطهر)؛ لأن الأولى لها اتصال بالماديات من ماء وغيره مما يطهر به الإنسان، أما الثانية فلها اتصال بالروح والإيمان، ولذلك نقول: إن (المطهرين) من جنس الاصطفاء، أي ممن يصطفيهم ربهم على غيرهم من الناس.

بناء على كل هذا، يكون معنى (ولم يمسسني) ليس لم يعاشرني أحد، وإنما لم يدُرْ بخلدي ولا تفكيري قط، حتى مجرد التفكير في الشهوة أو في معاشرة رجل، ومن ثَم، لم تراودني نفسي بما تراود به غيري من النساء، فكيف يكون لي ولد؟ إن هذا المعنى ينسجم تمامًا مع جنس المفردة (المسّ) وأيضًا مع المشهد العام في قصة مريم – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – إن القرآن زاخر بأوصافها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37]، وأيضًا قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: 45]. فهل يُعقل أن التي اصطفاها الله تعالى اصطفاءين اثنين (اصطفاء اختيار واصطفاء طهارة وتقديس) أن تتحرك نفسها نحو الشهوة ولو بالتفكير؟ حاشا، معاذ الله؛ لذلك يكون المعنى الذي نذهب إليه هو أن مريم – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – تعجبت من أمرها كيف أن الله اصطفاها وطهرها واختارها على نساء العالمين، فأزال عنها كل شائبة مما يشوب النفوس العادية لتجد نفسها حاملًا، إذ كانت روحها نقية صافية مصطفاة، فكيف حدث لها هذا (المس)؟ ما يزيد من قوة المعنى علامة معجمية أخرى في الآية هي (لم يمسسني بشر)، ولم تأت الآية (لم يمسسني رجل)، لأن البشر في اللغة تشمل الرجل والمرأة، بل تشمل كل مخلوقات الله من إنس وجن وملائكة، ولو كان مقصدها منصرفًا إلى العلاقة الجنسية لكانت الآية (لم يلمسني رجل)، والله أعلم.

ومن أوجه العناية بالعلامة المعجمية ما سماه بعض اللسانيين (بالدلالة الثقافية)، فهي «محور من محاور التحليل الدلالي للمعجم]...[ويكون ذلك من خلال النظر في عناصر الثقافة، من حيث شكل ورودها، كأن تكون كلمة أو تركيبًا أو نصًا أو إشارة أو إعادة بناء»[44]. وفي كل اللغات توجد مفردات موسومة ثقافيًا، ولا يمكن فهمها إلا بربط المعنى المعجمي بالتداول الثقافي لها.

4 - المستوى التداولي/العلامة السياقية

نستهل هذا المستوى بكلام جميل لابن القيم رحمه الله يقول فيه: «ينبغي أن يتفطن ها هنا إلى أمر لا بد منه، وهو أنه لا يجوز أن يُحمل كلام الله عز وجل ويُفسر، بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي، الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن، فتدبر هذه القاعدة، ولتكن منك على بال؛ فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه»[45]. ولقد كان «المحلل النحوي في تفسير القرآن الكريم ينطلق من جانبين في آن معًا: المعطيات السياقية النصية، والقواعد النحوية النظرية التي جُردت، فعندما ينظر المحلل النحوي في النص يلحظ مجموعة من القرائن والأدلة الحية [هي ما نسميه نحن بالعلامات] الماثلة

44 - أحمد محمد قدور، **اللسانيات و آفاق الدرس اللغوي** (دمشق: دار الفكر، 1422هـ)، ص 178-179.

45 - محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، **بدائع الفوائد** (مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، 1416هـ/1996م)، ج 3، ص 538.

أمامه في تشكيل النسيج النصي، وهذه بدورها تستدعي جملة القواعد النظرية التي في الذهن، ثم يطلق أحكامه بعد التأمل والقياس، وبذلك تشترك المعطيات النصية والقواعد في التحليل النحوي عند المفسرين»[46].

إن النظر في القواعد النحوية والتركيبية والمفردات ومعانيها، في غياب السياقات الداخلية والخارجية لورودها، أوقع بعض المفسرين في فهم بعض المعاني في حدودها اللغوية فقط، لا لشيء إلا لأنهم قيدوا أنفسهم بعلامات لغوية ظاهرة، وأهملوا علامات أخرى خفية (سياقية تداولية)؛ لذلك «عد العلماء مراعاة السياق في فهم القرآن الكريم المنهج الأمثل في التفسير، وضابطًا من الضوابط المهمة في حسن الفهم والتأويل»[47]. إن العلامة السياقية/المقامية هي المؤطرة للعلامة اللغوية والمحتضنة لها، ولذلك، يتغير معنى العلامة اللغوية من مقام إلى مقام، وهذا ما أشار إليه علماء نحو النص الذين أصبحت لديهم مفهومات معينة سادت في بحوثهم]...[كالسبك، والالتحام، والقصد، والقبول، والتناص، وخصوصية النص، ومراعاة المواقف[48].

ومن الأمثلة التي نوردها من تفسير الزمخشري، والتي لم يراع فيها معيار القصد والقبول وخصوصية الموقف ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7]، قال: «ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر؟ [يقصد: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾، ثم: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾] قلت: أما الأول فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه، وأما الثاني، فالخوف عليه من الغرق، ومن الضياع، ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف، فإن قلت: ما الفرق بين الخوف والحزن؟ قلت: الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع. والحزن: غم يلحقه لواقع، وهو فراقه والإخطار به، فنُهيت عنهما جميعًا»[49].

ولا نعتقد أن المعنى يتعلق بأمر ونهي إطلاقًا؛ لأنه لا يتناسب أبدًا مع سياقها ومشاهدها وأحوال المخاطب فيها، إن السياق هنا نفسي بالدرجة الأولى سببه الخوف الشديد على موسى – عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – من القتل؛ لذلك ينبغي تمثل هذا المشهد النفسي العام لفهم أعمق للآية ولمكوناتها التركيبية، إن الأم تكون أشد تعلقًا وحبًا لولدها، ولا يكون لديها أي استعداد للتخلي عنه مهما كلف الأمر، ولو كان المعنى متعلقًا بأمر ونهي لكانت هذه القضية خارجة عن حدود العقل وطاقة النفس...، ثم لو أن أم موسى أدركت أنه أمر ونهي لما خافت عليه من بعد أن وضعته في التابوت، حتى لا يكون خوفها الشديد على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تشكيكًا في أمر الله ونهيه، وفي قدرته على حفظه من القتل؛ لهذا، فالمشهد النفسي لأم موسى، ولطبيعة الأم بشكل عام، يأبى القول بأن الآية تتضمن أمرًا ونهيًا، والدليل على هذا المعنى موجود في السورة نفسها، وفي المشهد نفسه. قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: 10]. فلو صح ما ذهب إليه الزمخشري لكانت أم موسى متشككة في قدرة الله تعالى على حفظ موسى وعلى إرجاعه إليها.

إن الأمر والنهي متعلقان بالثواب والعقاب، ولا وجود لهذا على الإطلاق في الآية، فلو أن أم موسى ما فعلت لما ترتب عن فعلها هذا عقاب، ولما فعلت لم يترتب عن فعلها هذا جزاء وثواب، بمفهوم العقاب والثواب في الدين، وإنما الذي ترتب عن ذلك كله حفظ موسى من القتل، وتزكيته وعطاء من الله له.

46 - الجاسم، تأويل النص القرآني وقضايا النحو، ص 73.

47 - عبد الرحمن بودرع، **الخطاب القرآني ومناهج التأويل نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة** (الرباط: مركز الدراسات القرآنية الرابطة المحمدية للعلماء، 1435هـ/2014م)، ص 187.

48 - الجاسم، تأويل النص القرآني وقضايا النحو، ص 74.

49 - جار الله أبو القاسم محمود الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** (بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ)، ج 3 ص393.

إن اللغة العربية تستعمل صيغتي الأمر والنهي في مشاهد نفسية واجتماعية كثيرة، دون أن يكون المعنى متضمن لأمر أو نهي مطلقًا، من ذلك أن تقول لشخص: انظر، اترك هذا الأمر لي ولا تبال، أنت فقط أطعمه وألبسه وكفى، أنا سأتولى الأمر بنفسي لا تقلق.

فالأفعال (انظر - اترك - لا تبال - أطعمه - ألبسه - لا تقلق) لا تدل نهائيًا على أمر ولا على نهي، بقدر ما يرتبط معناها بمحاولة طمأنة المخاطب وتأكيد ما يود سماعه أو حصوله من فعل، ولذلك، فإن المعنى يدل على أن أم موسى في حاجة إلى من يدلها على حلّ ويقدم لها الضمانات المطمْئِنة على أن ابنها سيعود إليها سالمًا غانمًا، وفي هذا السياق يخرج الأمر والنهي من دلالتهما الحرفية إلى معنى التأكيد وتقويته، ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: 13-14]. فالقضية كلها، إذن، قضية وعد من الله ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، تماما كما لو أنك تعد إنسانًا متشككًا في أمر، ولا يكاد يفعله إلا بعد تأكيدات وتطمينات وحجج وبراهين، ثم في النهاية عندما يتحقق ما وعدته به، تأتيه وتقول له: **(ألم أقل لك لا تقلق؟)**.

لهذا، نقول – والله أعلم – إنه لا وجود لأمر ولا لنهي في الآية كما يدل عليه معناهما، وإنما هذه استراتيجية حجاجية يعلمنا الله إياها، وهي استراتيجية لغوية معلومة مستعملة في كل لغات الدنيا.

وتكرر في هذه الآية فعل (الخوف) مرتين ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القصص: 7]، ولا يمكن فهم معناه بشكل أدق، والفرق بين معناه في المرة الأولى (خفت عليه) مقترنا بحرف الجر (على)، ثم معناه في المرة الثانية (لا تخافي) غير مقترن بحرف الجر، إلا باستحضار السياق العام للحدث، وقد فسر الزمخشري ذلك – كما هو مبين في نصه أعلاه – أن الخوف الأول المقترن بحرف الجر (على) جاء دالًّا على الخوف على موسى من القتل، فهو خوف مخصوص إذن، وأن الخوف الثاني هو خوف عليه من الغرق في اليم، والضياع... فهو خوف متعدد غير مخصوص، هذا ما نفهمه من كلام الزمخشري، ونعتقد أن الأمر أسمى من كل هذا لعدة اعتبارات، فنقول: إن اقتران الفعل (خاف) – كأفعال كثيرة – قد يأتي مقيدًا بحرف أو بحرفين، وحينها يكون المعنى مقيدًا ومخصوصًا بشيء بعينه، وهو في الآية الخوف على موسى من القتل ومن الغرق، أما وقد جاء الفعل في المرة الثانية غير مقترن بالحرف، فإن ذلك معناه عدم الخوف مطلقًا، هذا المعنى يتناسب مع السياق العام للقصة، ولعلاقة موسى – عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – أولًا بأمه، وثانيًا بربه؛ فلما كان في العلاقة الأولى، وهي علاقة بشرية (أم بابنها) حق لها أن تخاف (عليه) من أي شيء كيفما كان، أمَا وقد صار في كنف ربه ومولاه فإن الخوف قد انتفى مطلقًا، لا من القتل، ولا من الغرق، ولا من غيرهما، ما يزيد قناعتنا بهذا المعنى هو عطف (الحزن) على (الخوف)، الفعل الثاني لا الأول (فإذا خفت عليه، فألقيه في اليم، **ولا تخافي ولا تحزني)**، ونفسر ذلك بالعلاقة النفسية التي مردها دائمًا إلى المشهد العام للحدث، حيث إن الخوف حالة نفسية مقيدة بزمن قصير؛ إذ يستحيل أن يخاف إنسان مدة طويلة، فالخوف حالة نفسية وزمنية قصيرة جدًا، فإذا طال الحال لم يعد (خوفًا)، وإنما خرج إلى دائرة أخرى أصعب وهي (الحزن). وهذا ما حدث لنبي الله يعقوب – عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – حيث قال قبل أن يفقد ابنه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: 13]. فظل خوفه خوفًا لحظيًا مرتبطًا بشيء (الذئب)، فالخوف هنا مُقيد، وبعد أن استيقن من فقدانه زال الخوف وتحول إلى حزن ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84]. ولهذا كان من عطاء الله لأوليائه أنه قال في كتابه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62]. فيأتي العطاء بمنعهم من الخوف، ومن الحزن معًا، وهذا المعنى كثير في كتاب الله.

إن هذه المعاني العميقة ما كنا لنصل إليها لو لم ننظر إلى العلامات في سياقاتها المختلفة، مخصوصة كانت أو مطلقة، وهكذا ينبغي على محلل الخطاب القرآني أن يتسلح بكل العلامات، ويحسن قراءتها في تكاملها مع بعضها البعض، ثم في سياقاتها المختلفة في كتاب الله، وعليه «تبيين المجملات وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات، وكل ذلك بعرف الاستعمال،

فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحًا، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذمًا، فما كان مدحًا بالوضع فوقع في سياق الذم صار ذمًا واستهزاء وتهكمًا بعرف الاستعمال»[50].

ثالثًا: دراسة لسانية تحليلية لسورة يوسف في ضوء نحو العلامة الوجودي

1 - عتبات النص باعتبارها علامة لغوية وسيميائية موَجِّهة

ب - تسمية السورة (يوسف):

من المباحث الجليلة التي لم تطرق بعد، بشكل متعمق سيميائيًا، في تحليل الخطاب القرآني تسميات السور، باعتبارها علامات موجهة للمعاني والمقاصد، ولعلاقتها بالمضامين المتعددة للسورة، إن التسمية (العنوان) يشكل أول مدخل (عتبة) نلج بها إلى عالم النص، إنه «نظام سيميائي ذو أبعاد دلالية ورمزية وأيقونية]...[، وسيميائيته تنبع من كونه يجسد أعلى اقتصاد لغوي ممكن يوازي ما تيسر من منجزات التأويل»[51]. ولهذا، علينا أن نتساءل: ما سبب تسمية كل سورة باسمها الذي نزلت به؟ أليست هذه التسميات موجبة لحمل معنى النص بشكل مكثف، وتوجهنا مسبقًا إلى المعاني والدلالات المختلفة؟ ما السر في تسمية سورة (العنكبوت)، أو (النحل)، أو (النمل) بهذه التسميات، رغم أنها تعود لحشرات صغيرة جدًا مقارنة بحجم الكون الوجودي الذي تحيا فيه؟

إن القرآن يوجهنا إلى المعاني من أول نقطة تبدأ بها السورة: وهي تسميتها؛ ولذلك، على الباحث ألا يتجاوز هذه التسميات في التحليل، وعليه أن ينظر إلى النص في شموليته، في علاقته بتسميته تلك، كما عليه أن يقلب الأدوار لتغدو التسميات علامات سيميائية على معانٍ مخصوصة بكل سورة، ومن هنا نقول إن «عنونة» سورة (يوسف) بهذه التسمية لا ينبغي أن يبقى منحصرًا في شخص النبي يوسف – عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ –، وإنما تصبح هذه التسمية مختزلة لكل المعاني الكبرى في السورة.

والمُلاحظ أن ترتيب السورة في المصحف الشريف هو (12)، وأن يوسف – عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – وإخوته يشكلون في مجموعهم اثني عشر شخصًا، وهذه علامة مهمة للغاية تحثنا على ضرورة دراسة أرقام ترتيب السور دلاليًا وسيميائيًا، واستخلاص مدى التناسب بين الرقم وبين مضامين السور. ولهذا، وأنت تقرأ السورة يصبح عنوانها علامة رمزية على عدة معانٍ تستقبلك، من بينها:

أ - «يوسف» علامة على الحسن والجمال: حسن القصة وجمالها ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، وحسن صاحبها وبهاؤه ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]، وحسن الاختيار والاصطفاء للعلم والنبوة ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: 6]، وحسن السريرة والمعاملة والتصرف ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: 23]، وحسن الصبر وجميل العفو ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: 77]، و﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: 92]، و﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 90].

ب - «يوسف» علامة الابتلاء العظيم والكثير من الأقارب ومن غيرهم، ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: 5].

50 - عز الدين بن عبد السلام، **الإمام في بيان أدلة الأحكام** (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1407هـ/1987م)، ص 185.

51 - بسام موسى قطوس، **سيمياء العنوان** (الأردن، مكتبة كتانة، 2001)، ص 6.

ج - «يوسف» علامة على الحسد والحقد وما يخلفانه من أثر اجتماعي ونفسي وعقدي، ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 9]، و﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: 84].

د - «يوسف» علامة منتهى الصدق والإخلاص في القول والعلم والعمل، وعدم الوقوع في المحرمات ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: 51].

هـ - «يوسف» علامة على الحكمة والعلم ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: 55].

و - «يوسف» علامة على الكيد والمحن ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: 20]، و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: 33].

ز - «يوسف» علامة على الفوز والنجاة والفلاح وحسن العاقبة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۖ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: 56]، و﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: 91].

هذه أغلب الدلالات الرمزية الكبرى لتسمية السورة (يوسف)، وهكذا ينبغي أن نستحضرها ونحن نريد قراءتها، وهكذا لا ينبغي أن ينحصر الذهن والتفكير في يوسف النبي – عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ – وإنما نتجاوز ذلك إلى المعاني العميقة؛ لأن القَصص القرآني إنما جاء مصدقًا لقوله تعالى ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

ب - مدخل السورة / الاستفتاح:

يشكل الاستفتاح في أي نص/خطاب نقطة ارتكاز أساسية تقود نحو المعنى، وتحدد مسالكه وتشعباته، إن استفتاح السورة بالحروف المتصلة (الر) يجعلها مشابهة لأربع سور أخرى جاءت متتابعة في القرآن الكريم، هي (يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحِجْر)، والمُلاحظ على هذه السور الخمس أنها جاءت مسماة بأسماء الأنبياء الذين أُرسلوا إلى أقوامهم، عدا سورة (الحِجْر) التي سُميت باسم القوم الذين كذبوا المرسلين، وكل السور – من حيث الموضوع – تحكي ما حدث للأنبياء مع أقوامهم، بما في ذلك سورة (الحجر)، وعليه، فإن الحروف المتقطعة صوتًا المتصلة خطًا (الر) في بداية كل سورة علامة على موضوع السورة ومضمونها، إنها علامة على ذكر حال نبي أو أنبياء مع أقوامهم، لتكون سورة (يوسف) أحسنها؛ لأن القصص فيها عن تلك الأحوال جاءت مفصلة وشاملة ومكتملة وبديعة جدًا، فحق لها أن تكون كما قال الله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾[يوسف: 3]، كما أن السورة جاءت كلؤلؤة العقد متوسطة هذه السلسلة من السور المصدرة بنفس حروف الاستفتاح (الر)، وإذا تأملنا أول حرفين منها (ا ل) نجدهما أكثر حروف الاستفتاح استعمالًا في سور القرآن الكريم، وترِدان مقترنتين دائمًا. ومعلوم أنهما يشكلان معًا حرف التعريف الذي يتصدر الاسم، فكانا علامة على تخصيص النكرة وتقييدها وتعريفه، ومن هنا نقول – والله أعلم – إنهما علامة على تعريف قارئ القرآن بأخبار الأولين من الأقوام، ممن طمرتهم موجات التاريخ في غياهب النسيان، فلم يكن من سبيل لمعرفتهم والتعرف عليهم، وعلى ما كان منهم تجاه أنبياء الله إلا هذه القصص، ثم تليهما (الراء)،

وهي حرف مكررة تحمل علامة على تكرار عناد أولئك القوم تجاه أنبيائهم، وعلى عدم إيمانهم بهم إلا بعد جهد ومشقة وطول زمن. إن هذه المعاني مستقاة من موضوعات السور الخمس، كما أنها جاءت كلها، تقريبًا، مسماة بأسماء الأنبياء، ولا يمكن أن يكون هذا مجرد صدفة، حاش لله، ومما يبين أهمية حروف الاستفتاح في السور وأنها علامة على المعاني فيها تصدر سورة (الرعد) التي جاءت مباشرة بعد سورة (يوسف) بنفس الحروف، لكن بزيادة حرف (الميم) قبل حرف الراء: (المر)، وعندما تأملنا السورة لم نجد فيها ذكرًا لنبي باسمه أو بعينه أو حتى إشارة إلى قوم معينين، إن السورة كلها عبارة عن مضامين عامة ومجملة، وهذا المعنى يتناسب مع حرف (الميم)؛ لأنه يدل على الجمع، ولذلك كان علامة عليه في الجمع الغائب (هم). كما أن السورة تدعونا إلى تأمل خلق الله والكون والوجود، وهذا يتناسب جدًا مع تسميتها (الرعد)، لذلك نجد فيها ذكرًا مكثفًا للسماء والأرض والشمس والقمر والرواسي والأنهار والنجوم والجنات وصنوف الزرع والفواكه... فسبحان الله الذي جعل هذه الحروف علامات، وتبارك الله أحسن الخالقين؛ ولهذا قلنا في محور المستويات اللغوية: إن العلامة الحرفية/الصوتية علامة موجهة للمعنى وأساسية في بنائه، فلا يمكن إغفالها مطلقًا.

إن التناسب لا يقف عند هذا الحد (بين تسميات السور الخمس، وتصدرها بنفس الحروف المقطعة)، وإنما نجد تناسبًا عجيبًا وبديعًا بين أواخر سورة هود، وبداية سورة يوسف، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120]، وهكذا، تكون كل هذه العلامات موجهة لنا ونحن نقرأ سورة يوسف؛ إنها أحسن القصص لورودها كاملة مكتملة ومفصلة لأحداث كثيرة، كما أن كل آية منها فيها موعظة أو حكمة أو درس لمن يريد أن يعتبر، وهذا ما تنتهي به السورة، وكأنها تلخص لك الهدف الأسمى الذي من أجله نزلت السورة، وكل السور التي خصصت لحال الأنبياء مع أقوامهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 109-111]. إنه تناسق عجيب بين نهاية سورة (هود) وبداية سورة (يوسف)، ونهايتها كذلك. وهكذا القرآن كله، يسلمك بعضه إلى بعض؛ لهذا لا يمكن للباحث في الخطاب القرآني أن يغفل أي علامة كيفما كانت، لأنها تؤثر في الفهم العام للسورة، ولا ينبغي أن يتقيد بحرفية الآيات أو باستقلال بعضها عن بعض، إنها كلٌ متداخل ومتماسك.

وهناك تناسب عجيب أيضًا بين الآية الأولى والثانية في السورة: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 1-2]. يتجلى في أن (الكتاب) وصف هنا بـ (المبين)، ثم تلاه قوله الله سبحانه الذي يبين طبيعة هذا (الكتاب المبين)؛ إنه قرآن عربي، والعربي هنا لا يقتصر على لسان قوم، هم العرب، بقدر ما يفيد هذا الوصف الإبانة والفصاحة والوضوح، وتكون العرب سُميت بهذا الاسم لتكلمها بهذا اللسان العربي المبين الفصيح، وهذا معناه أنهم قوم يشرفون بلغتهم، وليست اللغة هي التي تشرف بهم، وهذا معنى جليل وعظيم: إن اللغات في الوجود تشرف بأهلها ومتكلميها، وتقوى وتحيا بهم ما داموا مستمسكين بها، وإن هم أهملوها ماتت وانقرضت، إلا هذه اللغة العجيبة (العربية)، فإنها لغة – على عكس اللغات الأخرى – تحيي الناس وتعزهم وتعلي من قدرهم وشأنهم، إنْ هم استمسكوا بها، وإن هم تركوها وأهملوها فإن ذلك لا يؤثر عليها، وهي ماضية خالدة في الزمان منتشرة في المكان، ولك أن تتأمل في حال العربية وخلودها وصمودها عبر قرون طويلة ومازالت وستبقى، رغم أن أهلها أقل عناية بها.

ما يثيرنا في الآية الثانية أيضًا هو أن الله تعالى ربط بين هذا القرآن العربي وبين (العقل)، (لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)، وهنا نتساءل: ما العلاقة بين تطور العقل وذكائه وبين اللغة العربية؟ وكيف تؤثر هذه اللغة في العقل؟ قد لا نملك جوابًا الآن عن

هذين السؤالين، ولكننا ننبه إلى قولة شهيرة لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (تعلموا العربية فإنها تزيد في العقل والمروءة). إنها قولة عظيمة من رجل عظيم، وجب أن تدفع الباحثين إلى النظر في هذه العلاقة الجدلية بين العربية وبين العقل وبين المروءة.

2 - في الدلالات العامة لبعض الآيات

أول ما يثيرنا في السورة هذه الآية العجيبة ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]. إن الله كنى عن الأسرة مجتمعة بالكواكب والشمس والقمر، وهي كناية رائعة وعجيبة ووجودية، وهذا بعض ما نؤمن به في تصورنا الجديد في تحليل الخطاب (نحو العلامة الوجودي)، إن العلاقة بين الكواكب والنجوم – الآن – مما لا ينكره أحد، إنها علاقة قوية متينة، يؤدي الخلل في أحدها إلى التأثير على باقي المكونات الأخرى، بل يختل النظام كله، وجعل الله الشمس والقمر مركزين منيرين لباقي الكواكب التي تدور في فلكهما، كما أن كل الكواكب تستمد طاقتها ونورها منهما معًا، ولا يخفى على أحد تأثير حركة الشمس والقمر على الكواكب والمجرات، وعلى حركة المد والجز وما يتعلق بها من تغير الفصول، وأحوال الطقس، وتقلباته، بل وحتى على حياة الناس، فأي تصوير بديع هذا الذي جعل الله فيه العلامة الوجودية دليلًا على العلاقة الأسرية القوية بين الأبوين والأبناء؟ قال سبحانه مؤكدًا هذه العلاقة ومنبها إليها: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100]، إن مثل هذه الآيات لا يمكن تفسيرها بعمق إلا بعلوم الطبيعة والفيزياء؛ لأنها علامة طبيعية فيزيائية وجودية، تقتضي الكشف عن العلاقات الدقيقة والحساسة بين هذه المكونات الوجودية جميعًا. ومن هنا يحق لنا أن نقول: إذا كانت الشمس والقمر والكواكب تشكل نظام الكون والوجود ونظام الحركة فيه، فإن الأسرة هي نظام كل مجتمع، وكل خلل فيها سيؤدي إلى الانهيار التام، وإنّ خللًا في مكون واحد من مكوناتها مؤذن بخرابها كلها. هذا المعنى نجده حاضرًا في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: 28]. لقد استنكر قوم مريم عليها ما جاءت به، وكان استنكارهم ذاك من ثلاث علامات: الأخوة: (يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ)، ومن جهة الأبوة (مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ) والأمومة: (وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا). فسبحان الله، كيف ربط القرآن – على لسان قوم مريم – بين العلاقات الثلاث داخل الأسرة الواحدة (الأخوة والأبوة والأمومة). إنه ليس ربطًا اعتباطيًا، وإنما لينبهنا إلى أن أي طرف داخل الأسرة قد يكون سببًا في التأثير على مكوناتها الأخرى، أو في خرابها.

3 - العلامة الإحصائية

يمكن القول إن سورة (يوسف) هي سورة العلم بامتياز، حيث إنها على غير السور والقصص الأخرى في القرآن الكريم، كما أنها السورة الوحيدة – في نظرنا – التي لا تتضمن معجزة واحدة، وإنما كل ما حدث فيها من أحداث متعلقة بالعلم وبالعقل وبالنفس، لا تخرج عن ذلك، وقد يقول قائل: إن القميص معجزة، ونقول إن الأمر من باب الحقيقة والعلم، لا من باب المعجزة، وليس ثمة ما يشير – نهائيا – إلى المعجزة «الخارقة»، لقد أدرك يوسف – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بعلمه أن سبب أزمة أبيه وفقدانه البصر، إنما بسبب الفراق الطويل بينهما، وبسبب الحزن الشديد عليه، لقد سبب هذا الحزن طاقة نفسية شديدة أدت إلى ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84]. إن التعبير القرآني غاية في الدقة والدلالة على المعنى، لقد عبر القرآن بـ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ولا يعني هذا المعنى المطلق، إنما هو حالة مؤقتة سببها الحزن الشديد، ويكفي أن يرجع كل باحث إلى معنى كظيم في معاجم العربية؛ ليعرف أنها

لا تعني (أعمى) مطلقًا، وإنما تعني تخزين شحنة نفسية وحبسها عن الخروج، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: 134]، «كَظَم الرجلُ غيظَه إذا اجترعه. كَظَمه يَكْظِمه كَظْمًا: ردَّه وحبَسَه، فهو رجل كظيم»[52]. فلا علاقة، إذن، لمعنى الكلمة بالعمى، كما عهدنا في كتب المفسرين، وإنما هي حالة نفسية مؤقتة أدرك يوسف بعلمه أنها تزول إذا ما أيقن يعقوب بأن ابنه حي يرزق، وأن قرب لقائهما قاب قوسين أو أدنى، ومثل هذه الحالات النفسية التي تسببها صدمات اجتماعية بسبب وفاة عزيز أو فقدانه موجودة، وغالبًا ما يُشفى أصحابها إذا ما وجدوا ما فقدوا. هذه علامة نفسية طبية بديعة في كتاب الله. ولهذا قلنا: إن السورة كاملة سورة العلم والعقل، وليست سورة المعجزات، كما حدث مع بعض الأنبياء. وأما بقية الأحداث فيها فهي خالية من أي معجزة مطلقًا، وقد استعنّا بالعلامة الإحصائية فوجدنا أن المفردات الدالة على العلم وما يتعلق به كثيرة جدًا، نوردها على هذا النحو:

المفردات الدالة على العلم ومتعلقاته في السورة

ع.ل.م	ح.ك.م	مفردات أخرى ذات صلة
يعلمك - عليم - لنعلمه - ليعلم - العليم - علما - يعلمون - لا يعلمون - بما علمنا - لقد علمتم - لذو علم - وأعلم - ألم تعلموا - علمتني - بعالمين	حكيم - حكمًا - الحكم (مرتين) - يحكم - الحاكمين - يحكم	أفتوني - برهان - تأويل - حصحص الحق - تعبرون - أفلا تعقلون - أولي الألباب - لعلكم تعقلون
26 مرة بعض الألفاظ جاءت مكررة في السورة	7 مرات	8 مرات
مجموع المفردات الدالة على العلم ومتعلقاته 41 مرة		

إن سورة (يوسف) بحق سورة العلم والعقل، وكل المعاني فيها متعلق بهما، وليس بالمعجزات كما حدث مع الأنبياء الآخرين، بل إننا نقول: إن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو النبي الوحيد من الأنبياء، ممن لم تكن له معجزة في قومه مطلقًا، وقد يحتج علينا أحد بقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: 26]. بأن صبيًا في المهد تكلم فشهد، فنقول إن هذا كله من (ترهات) المفسرين، ولا دليل عليه نهائيًا، لا في السورة ولا في غيرها، في كتاب الله، كما لم يرد أي حديث من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بذلك، ولو كان الصبي قد شهد وهو ما زال في المهد، فما كان يمنع أن يذكر لنا الله ذلك، ويكون معجزة لنبيه؟ ثم لو كان الأمر كذلك لكانت علامة فارقة وأساسية في حينها لإثبات نبوة يوسف، وأنه ليس بشرًا عاديًا، ولكانت تلك الشهادة حاسمة في القصة، محققة لنبوة يوسف – عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ – وموجبة لإيمان القوم به، فما أدخلوه إلى السجن، وما كان ليتعرض – بعد ذلك – لمضايقات أخرى من النسوة، ومن امرأة العزيز من نفس جنس العمل الأول (المراودة)، لذلك على الباحث أن يعمل العقل وهو يفسر القرآن الكريم، وعليه أن يتسلح بالعلامات الدالة على ما يذهب إليه من المعاني. إن العلامات – إذا أُحْسِنت قراءتها وضبطها – موجبة لتوضيح المعاني وحصر المقاصد، ومن هنا تأتي قوتها في التحليل والتفسير.

لهذا، فإن تحليل هذه السورة يقتضي الاستعانة بعلم النفس وعلم الاجتماع؛ لأن كثيرًا من أحداثها من صميم النفس البشرية أو التجمع البشري، ومن هذا القبيل آية أخرى أخطأ فيها المفسرون، وتوارثوا تفسيرها الخاطئ ذلك في غياب أي

52 - ابن منظور، **لسان العرب**، ج 12، ص 519.

علامة مؤكدة لما ذهبوا إليه، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]، لا يسعنا المقام هنا لإيراد كل الكلام الذي جاء في التفاسير مفاده أن يوسف لم يهم بالمرأة مطلقًا، وأنه لا يجوز أن نقول: إن الهم قد حصل منه على اعتبار أنه نبي، والأنبياء معصومون، وكلام من هذا القبيل، والحق أن الهمّ حصل منه دون أن يكون ذلك منقصة فيه ولا في نبوته، ودليلنا في هذا علامات كثيرة، منها ما هو لغوي، ومنها ما هو نفسي.

فأما العلامات اللغوية: فهي دخول (لولا) في التركيب (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِ)، لقد تعسف بعض المفسرين واللغوين في تفسير الآية فقالوا: إن أصل الآية على هذا النحو (ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها)، وهذا مذهب متعسف في اللغة، قاصر في النظر النحوي واللغوي من عدة أوجه، أولها: أن (لولا) إذا تقدمت في الكلام وجب أن يأتي جواب شرطها مقترنًا باللام (لهمَّ بها)، ثانيًا، إن الآية جاءت على أصلها، وجاءت (لولا) متوسطة فيها، وجاء الفعل ماضيًا في بدايتها ليفيد أن الهمّ حصل وتحقق، غير أنه ليس نفس (الهمّ) الذي حصل من امرأة العزيز، إن همّها همُّ نفس وعزم؛ لأنها صممت (غلّقت الأبواب) وعزمت ونفذت (هيت لك)، أما الهمّ الذي حصل من يوسف فهو من صميم النفس البشرية، وهو أمر يقع لكل شاب مقتدر يجد نفسه مع امرأة ذات جمال ونسب وجاه، ولو لم يحصل (الهم) معه وله، لما كان إنسانًا عاديًا طبيعيًا، لكن (الهم) منه كان هم نفسٍ فقط، وفي السورة ما يؤكد هذا المعنى، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: 26]، وقول الحق تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: 32]، والشاهد عندنا الصيغة الصرفية (استفعل/استعصم) التي تفيد الطلب والإلحاح فيه؛ لأن حروف الزيادة (است) تفيد الطلب، وإذا أضفناها إلى معنى الكلمة (عصم: منع) فإنها تفيد مجاهدة النفس لكيلا تقع في المحظور، كل هذا في إشارة إلى خطورة النفس على الإنسان، وأنها سبب مهالكه، وهذه علامة نفسية؛ لذلك حذرنا رسول الله ﷺ أن يختلي رجل بامرأة؛ لأن الاختلاء بها – لأي سبب – موجب للوقوع في المهالك، حتى لو كان الرجل عابدًا زاهدًا متقيًا، ومما يؤكد صحة المعنى الذي نذهب إليه قول الله تعالى على لسان يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: 33]، فلو أنه كان معصومًا ويسيطر على نفسه لما كان ليلجأ إلى ربه لحمايته من النسوة، وما كان لدعائه أن يكون بهذا الشكل ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. [يوسف: 33] ثم علامة ثالثة في السورة نفسها، وهي: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: 53]. فلو كان يوسف نبيًا معصومًا لما كان القرآن ليذكر هذه الآية مطلقًا، وليأتي الكلام على لسانه واضحًا (وما أبرئ نفسي، ثم مؤكدًا بثلاث علامات نحوية، هي: (إنّ) و(اللام) وصيغة فعّالة (إن النفس لأمّارة بالسوء).

نلاحظ، بعد كل هذا، كيف تضافرت كل المستويات والعلامات الدالة عليها في تعزيز معنى دون آخر أو تأكيده أو نفيه. وهكذا ينبغي أن نتعامل مع القرآن الكريم تحليلًا وتفسيرًا، مستندين في ذلك إلى العلامات؛ إنها دليلنا نحو المعنى أو المعاني المتعدد، وهي الحجة الباقية، والدليل القوي فيما ينتهي إليه محلل الخطاب، أما التعامل مع الآيات والسور تعاملًا سطحيًا، بحيث لا يُؤخذ بعين الاعتبار هذه العلامات من جهة، وتعددها وتنوعها واختلافها ثم تكاملها من جهة ثانية، فإن المعنى سيظل منفلتًا، والمقاصد مبهمة، والأحكام الشرعية خاطئة. والله أعلم.

خاتمة وتوصيات

إن تحليل الخطاب القرآني – نظرًا لخصوصياته المتعددة – يحتاج إلى مناهج علمية ومعرفية خاصة، تنسجم مع خصوصياته تلك. ونعتقد أن الإطار العلمي المعرفي (نحو العلامة الوجودي) الذي تبنيناه في هذه الدراسة هو الأكثر قوة في النفاذ إلى عمق الآيات وبلوغ معانيها ومقاصدها، إنه تصور جاء نتيجة تأثير علم اللسانيات وتداخله وتكامله مع عدة علوم معرفية وإنسانية كثيرة، مما أدى إلى تعميق النظر منهجًا وتحليلًا في أنواع النصوص المختلفة، وفي مقدمتها الخطاب القرآني. إن هذا التصور منهج علمي جديد يعتمد على قوة العلامة اللغوية المتضافرة مع العلامة غير اللغوية، في انصهار تام مع العلامة الشرعية، مما يوفر تكاملًا وانسجامًا بين عناصر الخطاب ومكوناته بداية ونهاية من جهة، وبينه وبين الوجود والكون والإنسان من جهة ثانية.

وتزداد أهمية هذا التصور عندما يتعلق الأمر بالخطاب القرآني؛ لأنه خطاب قائم على العلامة بكل تنوعاتها وتجلياتها، وأولها العلامة اللسانية التي تضبط مغامرة البحث عن المعاني؛ حتى لا يخرج التأويل إلى مجرد «شطحات» أو تفسيرات دون دليل/علامة.

وإذا كان البحث في الخطابات الإنسانية يتسم بالتنوع وبالانفلات عن سلطة المعنى، فكيف الحال عندما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم، إنه خطاب متمايز من عدة أوجه، منها:

أ - أن مصدره هو الله سبحانه وتعالى، ومن هذه الزاوية لا حاجة لنا إلى تحليل الخطاب؛ لتكون النتيجة في النهاية أنه خطاب منسجم ومتسق، هذا معلوم بالضرورة، ولا أحد يجادل فيه.

ب - إن القرآن الكريم يحمل معاني ربانية سامية جُعلت في إناء، يناسبها ويحملها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومن هنا يستحيل أن يكون الإناء الحامل لها أقل سعة وحجمًا أو غير مناسب، وعليه، تكون اللغة العربية لغة غير عادية، بحيث استطاعت أن تحوي كلام الله وتعبر عنه، بل وتكون حاملة له إلى يوم الدين، ومن هنا ينبغي أن يكون التعامل مع هذه اللغة على أساس أنها لغة تَوَفّر فيها ولها من الخصائص التعبيرية ما لا يوجد في غيرها، وهذا يقتضي ألا يتم الاعتماد فقط على نفس الآليات التي يمكن تطبيقها على لغات أخرى.

ج - إن القرآن الكريم لم ينزل لتحدي العرب تعبيرًا والإعجاز بيانًا وأسلوبًا، ما لهذا نزل، وإنما نزل لـ ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9]. ومن هنا فإنه خطاب تنشأ عنه أحكام شرعية تتعلق بأحوال الناس ومعاشهم في دينهم ودنياهم، لكل هذا، يحتاج محلله ومفسره إلى عُدّة لغوية ومعرفية متجددة باستمرار، من أجل فهمه واستنباط الأحكام والمقاصد. وعليه، يمكن أن نجمل أهم التوصيات المتعلقة بهذا الموضوع فيما يلي:

- الاعتماد على المناهج العلمية المناسبة للخطاب القرآني، وعدم الاكتفاء بالمناهج اللسانية، كما هي في صورتها الحالية؛ لأنها مناهج أُعدت خصيصًا لتحليل الخطاب الإنساني البشري، وهذا ما يجعلها مناهج قاصرة عن إدراك المقاصد والمعاني الإلهية.
- عدم الاكتفاء – حتى في الخطابات البشرية – بعلم واحد في التحليل؛ لأن النصوص المختلفة عبارة عن أساليب وتراكيب وجمل متراكبة ومتداخلة، كما أن اللغة الإنسانية ذات أبعاد متعددة: (بعد اجتماعي، وبعد نفسي، وبعد منطقي، وبعد سيميائي إيحائي، وبعد بيولوجي...)؛ لذلك يجب ابتكار مناهج – وتجديدها باستمرار – تعتمد في أساسها على عدة معارف وعلوم متكاملة في التحليل.
- تشكيل فريق متخصص من الباحثين من أجل تقديم سلسلة من الدراسات والأبحاث المتخصصة والجديرة بالخطاب القرآني، تنتج أفكارًا وأفهامًا متجددة ومتناسبة مع قضايا العصر ومستجدات العلوم.

المراجع

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية. **بدائع الفوائد**. تحقيق عبد العزيز عطا وآخرون. مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، 1996.

ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**. حقق نصوصه وأخرج أحاديثه وعلق عليه عبد الله محمد الدرويش. دمشق: دار يعرب، 2004.

ابن عربي، محيي الدين محمد بن علي. **رسائل ابن عربي**. وضع حواشيه محمد عبد الكريم النمري. بيروت: دار الكتب العلمية، 2001.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، 1414هـ.

أبو محمد، عز الدين بن عبد السلام، **الإمام في بيان أدلة الأحكام**. تحقيق رضوان مختار بن غربية. بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1987.

أدمتسين، كرستين. **لسانيات النص: عرض تأسيسي**. ترجمة سعيد حسن بحيري. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2009.

إسماعيل، هناء محمود. **النحو القرآني في ضوء لسانيات النص**. بيروت، دار الكتب العلمية، 2012.

بو دراع، عبد الرحمن. «**في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم**». مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، جامعة الملك سعود، وكرسي القرآن الكريم وعلومه، 2013/02/16.

بو دراع، عبد الرحمن. **الخطاب القرآني ومناهج التأويل نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة**. الرباط: مركز الدراسات القرآنية الرابطة المحمدية للعلماء، 2014.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998.

_____. **الحيوان**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1442هـ.

الجاسم، محمود حسن. **تأويل النص القرآني وقضايا النحو**. الأردن: دار كنوز المعرفة، 2016.

جمعة، علي. **قضية تجديد أصول الفقه**. القاهرة: دار الهداية، 1993.

حساني، أحمد. **العلامة في التراث اللساني العربي: قراءة لسانية وسيميائية**. الرياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، 2015.

الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد. **البرهان في علوم القرآن**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1957.

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ.

سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر. **الكتاب**. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1977.

عبد البديع، أشرف. **الدرس النحوي في كتب إعجاز القرآن**. القاهرة: مكتبة الآداب، 2008.

عبد الله، البشير محمد. **اللغة العربية في نظر الأصوليين**. دبي: دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، 2008.

عياشي، منذر. **الكتابة الثانية وفاتحة المتعة**. الرباط: المركز الثقافي العربي، 1998.

غلفان، مصطفى. **اللغة والإنسان والعلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأول**. بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2017.

_____. **في اللسانيات العامة**. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2010.

الفراهيدي، الخليل ابن أحمد. ابن السكيت أبو يوسف يعقوب. الرازي، أحمد بن محمد المظفر. **ثلاثة كتب في الحروف**. حققه وقدم له وعلق عليه رمضان عبد التواب. الرياض والقاهرة: دار الرفاعي ومكتبة الخانجي، 1982.

فضل، صلاح. **بلاغة الخطاب وعلم النص**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1992.

قدور، أحمد محمد. **اللسانيات و آفاق الدرس اللغوي**. دمشق: دار الفكر، 1422 هـ.

المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران. **نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء**. اختصره اليغموري أبو المحاسن تباع، تحقيق رودولف زيلهايم. فيسبادن: دار النشر فرانتش ستاينر، 1964.

مطلوب، أحمد. **الأرقام العربية**. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983.

مطهري، صفية. «**التفاعل الدلالي بين المستويات اللسانية**». مجلة التراث العربي. العدد 112 (2008).

موسى قطوس، بسام. **سيمياء العنوان**. الأردن، مكتبة كتانة، 2001.

مومن، أحمد. **اللسانيات: النشأة والتطور**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2005.

Á. Gallego & D. Ott (eds.). 50 Years Later: Reflections on Chomsky's Aspects. Cambridge, MA: MITWPL, 2015.

Jain, Lakhmi C., Wu, Xindong. Advanced Information and Knowledge Processing series. NY: Springer Publishing, 2008.

Ryan, M. Nefdt. "The Philosophy of Linguistics: scientific underpinnings and methodological Disputes". *Philosophy Compass*. November 2019.